

أحاديث للطلاب



## الفصل الأول بشير الاسترخاء

أريد في الساعة التالية أن أتناول بعض القوانين ، أو المبادئ  
السيكولوجية المبنية ، وأبين تطبيقاتها العملية على الصحة العقلية ، وبصفة  
خاصة صحة حياتنا الأمريكية .

إن قومنا — وخصوصا في الدوائر العلمية — يتجهون اليوم نحو علم  
النفس ويتوقعون منه الكثير ، فإذا أراد علم النفس أن يبرر لهم هذا الاتجاه  
والتوقع وينصفهم فليبين لهم ثمراته في التربية وفي العلاج النفسي .

ولعل القارئ قد سمع عن نظرية عجيبة للافعالات يشار إليها عادة  
في المؤلفات السيكولوجية بنظرية لانج جيس Lang - James . وطبقا  
لهذه النظرية فإن افعالاتنا ترجع أساسا إلى تلك التحركات العضوية التي  
يثيرها فينا بطريقة الفعل المنعكس باعث أو مثير صادر عن موضوع  
أو موقف .

إن افعال خوف مثلا ، أو دهشة ، ليس نتيجة مباشرة لآثر وجود  
الموضوع في العقل ، ولكنه نتيجة لذلك الآثر السابق على ذلك ، ألا وهو  
الاضطراب الجسماني الذي يهيج الموضوع فجأة ، بحيث أنه لو أخذ  
هذا الاضطراب الجسماني فلن نشعر بالخوف إلى الدرجة التي تجعلنا  
نسمي الموقف مخيفا ، أو نشعر بالدهشة ولكن ندرك ببرود أن الموضوع  
كان حقا مدهشا .

ولقد بلغ بأحد المتحسين حدا من التطرف جعله يقول انا عندما نحزن فلأنا نبكى .

وعندما نشعر بالخوف فذلك لأننا نجرى ، وليس العكس ، أى انا نجرى لأننا نخاف ، ولا شك أن بعضا منكم ملم بهذه التركيبة المتناقضة المعكوسة .

والآن مهما يكن نصيب هذه النظرية لافعالنا من المبالغة — وأنا أشك فيما اذا كانت مبالغة كبيرة جدا — فمن المؤكد أن لها الأساسى صحيح ، وأن مجرد الاستسلام للدموع — مثلاً — أو للتعبير الخارجى عن فوبة غضب ينتج عنه — مؤقتا — جعل الحزن الباطنى أو الغضب أكثر حدة فى الشعور به .

وبناء على ذلك فلا توجد سنة معروفة أحسن أو أكثر فائدة وجدوى فى التدريب الخلقى للشباب أو النظام النفسى الشخصى للمرء ، من تلك السنة التى تطالبنا بأن نوجه عنايتنا الأساسية واتباعنا الأولى الى ما فعله وما نعبه ، وآلا فنى كثيرا بما نشعر به .

لو أننا استطعنا أن نردع ونقمع دافعا للجن والخنوع فى وقته مثلا ، ولو أننا استطعنا فقط ألا نوجه اللطمة أو الضربة أو نمزق الشكوى أو نمضغ كلمة الاهاة التى سنندم عليها طوال حياتنا ، فإن مشاعرنا نفسها ستصبح عما قريب أهنا وأحسن دون توجيه خاص منا بسببها .

ان العمل يبدو أنه يستتبع الشعور ، ولكن الحقيقة أن العمل والشعور يمتضان معا . وبتنظيم العمل الذى يكون تحت الضبط المباشر للإرادة أكثر من الشعور ، فاننا نستطيع بطريقة غير مباشرة أن ننظم الشعور الذى لا تتحكم فيه الإرادة .

وعلى هذا فان سيد الطرق الارادية للبهجة — اذا اقتدنا بهجتنا التلقائية — هو أن نجلس مبتهجين ، وأن ننظر حولنا بابتهاج ، وأن نتصرف وتكلم كما لو كانت البهجة ماثلة أمام أعيننا بالقل .

وإذا لم يستطع هذا المسلك أن يجعلك مبتهجا حالا ، فلا يوجد شيء في هذه المناسبة يستطيع أن يجعلك مبتهجا .

وعلى هذا النحو — لكى نشعر بالشجاعة — فلنتصرف كما لو كنا شجعانا ، ولنستعمل كل إرادتنا لهذه الغاية ، ومن المرجح أن نوبة شجاعة ستحل محل نوبة الخوف .

وكذلك إذا أردنا أن تترقب بشخص سبق لنا أن اعتدنا عليه ، وأن نشعر حياله بالود والتلطف ، فالطريقة الوحيدة هي أن نبسم في وجهه عامدين ، وأن نستمر عنه ، وأن نجبر أنفسنا على أن نقول له قولا كريما . إن ضحكة من القلب يضحكها عدوان مما ستجعل كلا منهما يدفع بالتي هي أحسن، «فاذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولى حميم». هذه الضحكة ستعمل فعل السحر في تسيئها وتقربها أحدهما من الآخر أكثر بكثير مما تفعله تلك الساعات التي ينفقها الطرفان في المصارعة الباضية مع الوسواس العقلى لشعور عدائى .

إن مصارعة شعور يبيء انما يثبت اتبائها فيه وحسب ، ويمكن له فى عقولنا فى حين أننا اذا تصرفنا كما لو كان تصرفنا صادرا عن شعور طيب فسرعان ما يطوى الشعور القديم خيته ويحمل عصاه على كفه ويرحل فى صمت .

بناء على ذلك فان أحسن المختصرات الدينية تكرر الحكمة القاضية بأنه يجب علينا أن نتجاوز عن مشاعرنا ، وآلا نلقى اليها بالا مطلقا .

في كتيب رائع بارع واسع الأتشار يسمى « سر الحياة السعيدة عند المسيحي » ألفته الكاتبة المسز هانا هويتول سميث Mrs. Hannah Whitehall Smith وجدت هذا الدرس على كل صفحة تقريبا :

« تصرف بإيمان — تكن مؤمنا حقا مهما يكن شعورك بالبرودة ، أو حتى بالشك » .

لقد كتبت المسز سميث تقول :

« انه هدفك ، هو الذى ينظر اليه الله ، وليست مشاعرك نحو هذا الهدف . ولذلك فان هدفك أو ارادتك هى الشيء الوحيد الذى تحتاج الى تركيز اتباهك فيه . دع افعالاتك تجيء أو تذهب كما يريد لها الله ولا تلق اليها بالا سواء أ جاءت أم ذهبت ، اذ لا شأن لها فعلا بالمسألة . ان افعالاتك ليست المؤشرات الدالة على حالتك الروحية ، ولكنها مجرد دلالات على مزاجك أو حالتك الجسمية الراهنة » .

يبد أنكم جميعا تعرفون هذه الحقائق قبلا ، ولذلك لا أريد أن ألح عليكم بها بعد ذلك .

من أعمالنا ومواقفنا تأتي تيارات دافقة لا تتوقف من الاحساس ؛ وهى التى تساعد على أن تحدد وتقرر من برهة لأخرى . ما ستكون عليه أحوالنا الباطنية . وهذا قانون أساسى فى علم النفس يتعين على أن أمضى قدما فى اتخاذه .

ظهر حديثا كتاب لعالم نسوى ذى شهرة واسعة من علماء الأعصاب أسماه « Binnenleben — أى « الحياة الدفينة للناس » .

ولقد ذكر هذا العالم أنه لا يمكن لطبيب أن يصطنع علاقات مفيدة حقا مع مريض عصبى مالم تكن عنده فكرة عن الحياة الدفينة لذلك المريض

والبحر الباطنى الذى لا يصفح عنه ولا يجار به ، حيث يقيم وعيه وحيدا رهين محبه .

هذا النغم الشخصى الباطنى هو ما لا يستطيع قلبه بدقه أو وصفه بتحديد للآخرين ، ولكن شبحه وشيبهه هما غالبا ما يشعر أصدقاؤنا وأحبابنا أنهما أكثر الصفات تميزا لنا .

وفى العقول الملتائة المريضة — بصرف النظر عن كل أنواع الندم القديمة وأصناف الطموح التى أوقعتها أحاسيس العار وألوان الآمال التى اعتقلها الجبن عند أصحاب هذه العقول المريضة — يتكون هذا النغم الشخصى الباطنى من كسر جسمانى لا يستطيع المريض أن يعدد مكانه بوضوح ، ولكنه يملئ فيه شكاً عاماً فى ذاته ، وارتياحاً منها ، وإحساساً غامضاً بأن الأمور لا تجرى على النحو الذى يبنى لها أن تمضى فيه ، وليست كما يجب أن تكون .

إن نصف الظلم للضرر الموجود فى العالم مرده بكل بساطة الى أن الضرر هو دور المخضر الموقت والمزبل لكل تلك الكروب ومشاعر النغم التى لا يبنى أن تكون موجودة عند أى إنسان بتاتا . وعلى العكس من ذلك ، فعند أصحاب العقول السوية الصحية لا توجد مخاوف ولا مشاعر بالعار ليحاط عنها اللثام . والأحاسيس التى تنسكب من الجهاز انما تساعد على دعم وصيانة وتغطية الشعور العام الحيوى بالطمأنينة والاستعداد للملاقاة ما أتى به أحداث الدهر .

اعتبر — مثلا — الآثار الطيبة — لجهازنا العركى العصبى والعضلى إذا كان ذا نغم تام الانسجام والوثاق — على حالتنا الملمة من الوعى بالذات ، وعلى الشعور بالمرونة والكفاية الناتجة عن توافق واكتمال هذا النغم .

يقولون ان حياة المرأة في النرويج قد شملتها أخيرا ثورة كلية بسبب النتائج التي تربت على الاحساسات العضلية لدى النساء التي أدى اليها استعمالهن لأداة الانزلاق على الجليد ski ولبس أحذية الثلج الطويلة كالرجال سواء بسواء .

فمنذ خمسة عشر عاما كانت النساء النرويجيات — أكثر من بقية نساء البلاد الأخرى — من أشد النساء محافظة وتخصا وتعبدا للمثل الأعلى القديم القاضى بأثوية المرأة « ملاك البيت الطاهر » ذات التأثير اللطيف المهذب الشائق الرائق . والآن — قدر لهؤلاء النساء قعيدات دورهن الى جانب المدفأة — ودربت تلك القطط الأليفة ، فأصبحن بفضل أحذية الجليد مخلوقات جريئة لينة مرنة لا يخشين ظلمة الليل ولا يرهبن ارتفاع الجبال وانما يقتحن الأخطار غير هيابات ولا وجلات ، وهن لم يودعن ذلك التركيب الأثوى التقليدى الهش الرقيق فحسب ، ولكنهن أمسكن بزمام القيادة في كل حركة للإصلاح التربوى والاجتماعى .

ولا يسعنى الا أن أعتقد أن عادات لعب التنس ، والتجوال ، والترحلق على الجليد ، وهوس ركوب الدراجات — التي اتشبرت سريعا بين اخواتنا وبناتنا العزيزات في بلادنا ستفضى أيضا الى نغم أخلاقى أكثر صحة وجدوى وحاسة عن ذى قبل ، وان هذا النغم الفتى الحمى ستشيع أنفاسه القوية في حياتنا الأمريكية كلها ، ويبعث فيها الحيوية والنشاط .

إن أملى كبير فى أن يزداد هنا فى أمريكا فهما واتخاذا للمثل الأعلى القاضى بأن الجسم السليم القوى الذى أحسن تدريبه سيمشى جنبا لجنب وكتفا لكتف مع المثل الأعلى القاضى بتدريب وتقوية العقل على أحسن وجه — وأن يتزامل المثالن كنديين لا ضدين ، ومكملين لا قبيضين ، ونصفين

متلازمين متجاورين متساويين في التعليم العالي للذكور والافاث على النسوة .

إن قوة الامبراطورية البريطانية تكمن في قوة خلق الفرد الانجليزي كفرد لا رقيب عليه ولا حسيب سوى نفسه .

وأنا على يقين من أن هذه القوة تستمد قوتها وغذاءها باستمرار وتشتق حيويتها الموصولة من عبادتهم القومية — التي تشترك فيها كل طبقات الشعب — للحياة الرياضية الطليقة والألعاب الرياضية ، أكثر من أى عامل آخر .

أذكر منذ ستين أنى كنت أقرأ مؤلفا لطبيب أمريكي عن الصحة وقوانين الحياة ونوع المصير الذى ينتظر الانسانى في المستقبل ، ولقد نسيت اسم المؤلف وعنوان الكتاب . ولكنى أذكر جيدا نبوءة مزعجة وردت في الكتاب عن مستقبل جهازنا العضلى . وأهم ما أكده المؤلف أن الكمال الانسانى معناه القدرة على السيطرة على البيئـة . ولكن البيئـة ستحتاج دواما الى مزيد ومزيد من القوى الفكرية ، وأقل وأقل من القوة الحيوانية المجردة . إن الحروب ستنتهى وتتوقف ، وستقوم الآلات بأداء كل الأعمال الشاقة بدلا من الانسان ، وسيصبح الانسان مجرد موجه لطاقت الطبيعة بإذلا أقل جهد ممكن من عنده .

فاذا اقتصر جهد انسان المستقبل على هضم الطعام والتفكير ، فما حاجته عندئذ لتنمية عضلاته وهويتها ؟ ثم يفضى المؤلف في تبيان وجهة نظره فيتساءل :

ولماذا لا نقتنع — حتى منذ الآن — بنوع من الجمال انفكرى الأكثر رقة ورقيا من ذلك النوع الذى أعجب به أسلافنا ؟

بل لقد سمعت واحدا من أصدقائي ذوى الخيال الجامح يتقدم خطوة أخرى فى اتجاه هذا الانسان الجديد فيقول إن طعام المستقبل سيمعد على شكل سائل من العناصر الكيموية للجو معدا بخمائر الهضم ، أو نصف مهضوم مقدما ، ثم يمتص من أنابيب زجاجية تخرق علبا صفيحية . فمأجاجة الانسان عندئذ للأسنان ، بل ما حاجته للمعدة ؟ ! .

كل ذلك قد يذهب بمضلاتنا وشجاعتنا البدنية ، ولكنه يشحذ أكثر وأكثر قوى أخرى فينا ، فيزداد حجم رهوسنا فتصبح كالقباب الهائلة تطل من تحتها عيون حادة من وراء المنظار الزجاجى ، وتبرز من أسفلها شفاه رقيقة مرنة لا تكف عن الفيضان بحديث كله علم وعبقرية . ولن يكون للانسان أى عمل يوافق تركيبه الجديد سوى الكلام .

أنا متأكد أن أبدانكم تقشع من هول هذه الرؤيا . ولقد اقشع بدني بالتأكيد عندما قرأتها ، ولا يمكننى أن أتصور أبدا أن قوتنا العضلية ستصبح ذات يوم مجرد نافلة .

وحتى اذا جاء ذلك اليوم الذى لا نحتاج فيه اليها لخوض الحروب الجبارة القديمة ضد الطبيعة فاتنا سنحتاج اليها دائما لكى تمدنا بأساس للصحة والرصانة والهدوء والابتهاج للحياة ، وسنحتاج اليها لكى تمد مزاجنا بالمزونة الخلقية وترقق من حواشينا وتلطف ما يحتوشنا من ضجر ونكد، وتجعلنا مريحين موطنى الأكناف .

إن الضعف خليق بأن يصبح ما يسميه الأطباء الضعف النزق أو النكد .

إن نعمة السلام الباطنى والثقة والطمأنينة والسكينة والتقبل — نعمة « الرضا » كما اعتاد سبينوزا Spinoza أن يسميها — الذى يتدفق من كل جزء من جسم الانسان ذى العضلات القوية المدربة المتناسقة المتناغمة

المنسجمة ، وتشيع في روحه التي تسكن جسده — الارضاء والكفاية هي عنصر بالغ الأهمية في الصحة الروحية ، بصرف النظر عن أى اعتبار لفائدتها الميكانيكية .

والآن دعونا نتمق في موضوع الصحة العقلية ونحاول أن نجد بصيرتكم وعطفكم لقضية أعتقد أنها في منتهى الأهمية لنا معشر الياكى  
Yankoes

منذ عدة سنوات زار هذه البلاد طبيب سكوتلندى اسمه الدكتور كلوستن Dr. Clouston — أو الطبيب المجنون — كما يسمونه هناك — أو ما ينبغي أن نسميه طبيب اليمارستان ( وهو أشهر طبيب من هذا النوع في اسكتلندا ) .

ولما زيارته لبلادنا قال هذا الطبيب الشهير كلاما ما زلت أتذكره منذ ذلك الوقت حتى الآن ، وما زال يرّن صدهاء في سمى وفي خلدى :

« أتم معشر الأمريكين ترهقون وجوهكم بكثرة ما يبدو عليها من تعبيرات ، انكم تعيشون كالجيش الذى يلقي بكل ما عنده من احتياطي في المعركة .

إن طلمة الانجليز ومعيهم البليد الكال يدل على أن هناك نظاما للحياة أفضل من نظامكم ، وأسلوبا للعيش أجدى من أسلوبكم ، انها تشير الى وجود معين لا ينضب من القوة المصيبة المدخرة عندهم لوقت الشدة اذا ما دعتهم الضرورة واقتضتهم الحاجة . هذا الثبات والهدوء ، هذه الوفرة الدائمة للقوة في كل وقت ، هذا الاحتياطي المخور ، هذا الرصيد الموفور .. هو في نظرى أعظم ركيزة لحمايتنا وأقوى سند لنا معشر البريطانيين . ان تفاد هذا الاحتياطي من عندكم باستمرار يعطى شعورا بعدم الطمأنينة وفقدان الأمن ، وعليكم أن تخففوا هذا النغم العالى المشدود على نغو ما . ان تعبيرات وجوهكم تحمل طابع الغلو . إنكم

تعالجون تفاهات الحياة وسفاسفها بتوتر ومبالغة وتوسع لا مبرر لها ولا مسوغ .

إن الدكتور كلوستن Clouston رجل خير بصير بقراءة أسرار الروح كما تتجلى على المحيا . وهذه الملاحظة الدقيقة التي تلوتها عليكم والتي استطاع أن يبين بها ما يتمل في نفوسنا وتنطق به وجوهنا ، هذه الملاحظة لها مضامين بعيدة المدى .

وكل الأمريكيين الذين يقيمون في أوروبا مدة كافية تسمح لهم بالعود على الروح التي تسود الحياة هناك وتتجلى في محيا القوم وطلقتهم ، والتي تبدو هادئة زاخرة بالسكينة اذا قورنت بما يصدر عنا معشر الأمريكيين ، أقول إن كل هؤلاء الأمريكيين الذين عاشوا في أوروبا يبدون الملاحظة نفسها مرجعهم الى قومنا وشواطئنا . فبمجرد عودتهم تطالعهم عيون بني قومهم بنظرات حادة تنطق اما بالهفة والقلق ، أو بالاسمهال العاطفي والنية الطيبة . ومن الصعب أن نقول في أى الجنسين تتجلى هذه الظواهر عندنا أكثر — في الرجال أم النساء .

وحقيقة أننا لا نشعر بهذه الظاهرة قط — كما أحس بذلك الدكتور كلوستن .

وكثير منا — بدلا من أن يرثوا لها ويأسفوا عليها — يحبون بها .  
اننا نقول :

« أى ذكاء تفصح عنه . ما أروعنا وما أبرعنا لأننا نختلف عن تلك الوجنات البليدة والعيون الجامدة التي تشبه عيون السمك ال Codfish والمزاج البطيء الجمادى القدم الذى يطالعنا في الجزر البريطانية ! »

ان الغلو والسرعة والحيوية الشديدة في المظهر هي فعلا صفات تلتصق بنا كمثل عليا قومية تتقبلها وترتضيها . والرأى الطبى الذى يصفها « بالضعف النزق أو النكد » ليس هو الرأى الذى يتبادر الى أذهاننا من جرائها كما تبادر الى ذهن الدكتور كلوستن عندما تبينها فينا .

أذكر أننى قرأت فى صحيفة أسبوعية منذ مدة غير بعيدة — قصة — بعد أن وصف الكاتب فيها جمال وشغف وروعة شخصية البطلة — أوجز كل سحرها وجاذبيتها بأن قال ان كل من نظر اليها لا يمكنه أن يقاوم انطبعا أو أثرا قوامه أنها كالبرق الخاطف المعبأ فى زجاجة . الزجاجاة كأنها كوكب درى يوقد من برق خاطف .

هذه هى حقيقتنا : برق حبيس زجاجة ورهينها يسطع ويخطف الأبصار والأفئدة ! هذا هو واحد من مثلنا العليا الأمريكية ، حتى بالقياس الى شخصية فتاة صغيرة .

وليس من اللياقة أو اللطافة — وقد يبدو لبعض الأشخاص عملا غير وطنى — أن نتنقد على الملاء الخصائص والعجائب الجسمانية لقومنا وأهلينا .

وبالإضافة الى ذلك ، فرب قائل يقول — وله الحق فى ذلك — إن هناك أمزجة كثيرة على غرار البرق الملب فى زجاجة فى بلاد أخرى غيرنا وان هناك أمزجة أخرى كثيرة فى بلاد زاخرة بالهدوء والسكينة ، وانه فوق كل شىء وبعد كل شىء فان زيادة هذا التوتر أو نقصانه الذى أكاد أقيم عليه الدنيا وأقعدھا ، ليس الا جزءا يسيرا جدا من جماع حياة أمة من الأمم ولا يستحق كل هذا التناول الخطير فى الوقت الذى يتعين علينا أن نتحدث عن المسائل السارة البارة لا المسائل المنفرة الضارة .

هذا حسن — فليكن — فان زيادة أو نقصان التوتر فى وجوهنا وفى عضلاتنا التى لا تستعمل — أمر صغير فعلا — فان هذه التقلصات

لا تؤدي عملا آليا كبيرا . ولكن ليس دائما الحجم المادى للشئ هو الذى يقرر أهميته وانما وضعه ووظيفته .

من أعظم الملاحظات الفلسفية التى سمعتها فى حياتى تلك الملاحظة التى قالها عامل غير متعلم كان يقوم ببعض الاصلاحات فى بيتى منذ سنوات عديدة .

قال هذا العامل : « إن الفرق ضئيل جدا بين رجل وآخر عندما تصل الى القاع أو النخاع ، ولكن هذا الفرق — الضئيل أيا كان — فى منتهى الأهمية » .

وهذه الملاحظة تنطبق بالتأكيد على هذه المسألة التى تناولها .

هذا التقصص أو الاقباض العام — الزائد عن الحد — قد يكون صغيرا وضئيلا إذا قدر بالوزن أو الحجم ولكن أهميته بالغة بالقياس الى نتائج وآثاره على الحياة الروحية للشخص الذى يغلو فى التقصص والاقباض .

وهذه نتيجة ضمنية تترتب على نظرية الاتصالات التى أشرت اليها فى مطلع هذا الحديث لأنه بوساطة الاحساسات التى تندفق بلا توقف من الجسم المثار الفائق التوتر — يحدث استمرار موصول لعادة للعقل مثارة فائقة التوتر — تقابلها .

والجو الباطنى الزاعق المهدد المضنى المستنفد للطاقة فى « عليك » لن ينقشع أبدا تماما .

إذا كنت لا تسترخى أبداً — بجسمك كله — على المقعد الذى تجلس عليه ، ولكن تظل دائما ثانيا ساقك وعضلات جسك نصف ثنية متأهبا للنهوض ، وإذا كنت تتنفس ثمان عشرة مرة أو تسع عشرة مرة فى الدقيقة

بدلاً من ست عشرة مرة في الدقيقة ، ولا تتبع شهيقك زفيراً ، فأى مزاج عقلى يمكن أن تكون فيه الأبهرا ولهنا باطنياً وتوقعا للفرج ؟

وكيف يمكن للمستقبل وهمومه أن تهجر عقلك ؟ .

ومن ناحية أخرى كيف يمكن لها أن تدخل عقلك اذا لم تنبسط لها جبهتك ؟ واذا لم يكن تنفسك هادئاً وكاملاً وعضلاتك كلها مسترخية ؟ .

والآن : ما هو السبب في فقدان السكينة وفي وجود هذا البرق الملعب فينا نحن الأمريكين ؟

إن التفسير الذى نسمعه عادة أن السبب في ذلك هو الجفاف الشديد لمناخنا ، والألعابى البهلوانية الصادرة عن ميزان الحرارة والبرودة عندنا ، مضافاً إليهما تلك القفزات التقدمية الشديدة في حياتنا وما يصاحبها من عمل شاق مضمّن — معلى عليها سرعة المواصلات بالسكك الحديدية ، وسرعة النجاح ، وبقية الأشياء الأخرى التى نحفظها جميعاً عن ظهر قلب .

حسناً — فليكن — فإن مناخنا بالتأكيد مثير ومبهج ، ولكن لا يختلف في ذلك عن المناخ في كثير من أجزاء أوروبا حيث لا توجد مع ذلك بنات كالبرق الملعب في زجاجة .

والعمل الذى تتطلبه الحياة في كل عاصمة كبيرة من عواصم أوروبا ، وخطو الحياة ووقعها ، لا يقل حدة ولا تطرفاً عما عليه الحال عندنا .

يبدو لى أن هذين السببين الملفقين لا يكفيان أبداً لتفسير الحقائق .

ولكى تفسرها ينبغي ألا نلجأ للجغرافيا الطبيعية بل نولّى وجوهنا شطر علم النفس والاجتماع .

ان آخر فصل في كلا علمى النفس والاجتماع يمكن تنميته على نحو يقارب الكفاية هو الفصل الخاص بالباعث التقليدى أو وازع المحاكاة .

فأولا باجهوت Bagehot ثم تارد Tarde ومن بعدهما رويسى Royce وبولدوين Baldwin هنا قد برهنوا على أن الاختراع والتقليد — إذا اقترنا معا يشكلان لحمة وسدا الحياة الانسانية لدرجة كونها اجتماعية . ان التوتر الفياض ، والأعصاب المشدودة ، وتقطع الأنفاس والحدة والغضب والنزاع التي تتجلى كلها على محيانا وفي تعبيراتنا ، هي أولا وقبل كل شيء ظواهر اجتماعية ، وثانيا فقط فسيولوجية . انها عادات سيئة — لا أكثر ولا أقل — اكتسبت وحصلت بالممارسة والتعود والمثل ونجمت عن تقليد النماذج السيئة وعن غرس المثل العليا الشخصية الزائفة .

كيف تحصل الاصطلاحات وتكتسب ؟

كيف تحدث اللهجات المحلية في القول والاشارة والعبارة بما فيها من غرائب وعجائب ؟

إنها تتم عن طريق مصادفة عرضية تصدر عن شخص ما ، ثم يسمعا الآخرون ويقتبسونها وينسجون على منوالها ويقلدونها الى أن يلوکها كل لسان في ذلك المجتمع المحلي .

وكذلك الأمر بالقياس الى حيلنا القومية في النطق والتلحين والتنغيم والعادات والآداب والحركات والاشارات وتعيرات الوجه التي تتعودها ونألفها ونمارسها .

نحن هنا في أمريكا نتيجة لاتباعنا سلسلة موصولة انحدرت الينا من واضعى أنماط ونماذج يستحيل علينا اليوم أن نقتفى آثارهم ونرصد جذورهم ، وبوساطة تأثير بعضنا في البعض الآخر في اتباع الطريق الخاطيء والاتجاه المرذول استقر بنا الأمر في النهاية — جماعيا — الى التشكل

والانصباب في نمط قومي له خصائصه خيرا كانت أم شرا . وهو نمط — بما يصاحبه من هذه العادات — لم يكن للمناخ ولا للظروف والأحوال شأن ولا يد فيه قط .

هذا النمط — الذى وصلنا اليه على هذا النحو بالتقليد — ثبتناه اليوم فينا واتخذناه نموذجا لنا خيرا كان أم شرا .

ولا يوجد نمط يخلو كلياً من المزايا — ولكن ما دام نمطنا يتبع نموذج البرق المعبأ في زجاجة ، فلا يمكن أن يكون نمطا طيبا كله .

لقد كان الدكتور كلوستن Dr. Clouston على حق بالتأكيد عندما قرر أن التحمس الشديد ، وبهر الأنفاس ، والقلق ، والركض ، ليست من علامات القوة ، وانما هي علامات دالة على الضعف ورداءة التناسق .

ان الجبين المستوى ، والخذ الذى يبدو كصفحة الحجر أو لوح الخشب والعين الجامدة التى تشبه عين السمك codfish — قد تكون أقل إثارة أو ظرفا — مؤقتا — ولكنها علامات تحمل في طياتها إمكانات وقدرات أكثر رجاء لمن يصطنعها ويحوزها في المدى الطويل من ذوى التعبير الحاد والتوتر البادى وبقية الصفات الموجودة في قومنا .

انظروا الى العامل البطيء الذى يبدو أمام أعينكم بليدا ، انه قادر على إنجاز كمية أكبر من العمل ؛ لأنه يمضى قدما ولا يتقهقر ولا ينهار .

وقارنوه بالعامل المتعجل المتوتر المشنج الذى ينهار سريما ويصاب بنوبات من سوء المزاج وحدته ، وكثيرا ما لا تعرف أين تجده عندما تصبح حاجتك اليه ماسة ، فقد يكون في ذلك الوقت فريسة لاحدى تلك النوبات .

انا نقول ان كثيرا من بنى جلدتنا ينهارون ويتعين ارسالهم الى الخارج لتهدئة أعصابهم لأنهم يعملون كثيرا فوق طاقتهم .

وعندى أن هذا خطأ جسيم .

فلا طبيعة العمل ، ولا كمية العمل ، تعتبران مسئولتين عن كثرة أو حدة ما يصيبنا من الانهيار ، ولكن سبب الانهيار يكمن في تلك الاحساسات السخيفة بالمجلة وضيق الوقت ، وفي بهر الأنفاس والتوتر والقلق البادى على محيانا ، وفي تلك الرغبة الجامحة للحصول على نتائج سريعة ، وفي فقداننا للتناغم الباطنى واليسر ، وكل تلك الصفات التى تصاحب ما تؤديه من عمل — وهى دواع وأسباب لا تعرقل الأوروبي الذى يؤدى عملنا نفسه بنسبة تسعة الى عشرة — أى ان الأوروبي يخلو من تسعة أعشار هذه المعوقات .

هذه الحيل المتبطرة التى لا لزوم لها ، القائمة فى اتجاهاتنا الباطنية وآدابنا ومسلكتنا الخارجى التى تنتقل بالعدوى من الجوار الاجتماعى من جيل لآخر على شكل تقاليد ، يتخذها كثير منا مثلا أعلى لأروع طريقة للحياة . هذه الحيل هى القشة الأخيرة التى قصت ظهر البعير الأمريكى ، والحسك والشوك الذى جنيناه منها ، والذى تدل كميته على مبلغ ما وصلنا اليه من تم وضنى وارهاق وبلى .

أن عددا كثيرا منا — مثلا — ينضح صوتهم بالحزن والتعب ، والبعض — حقيقة — متمبون ( لأننى لا أقصد أن أنكر على الاطلاق أن لنا خاصية الاتعاب ) ولكن الأغلبية العظمى منا ليسوا متمبين بتاتا ، أو لن يكونوا متمبين مطلقا لولا أننا تتحايل على تصيد الشعور بالتعب باتباع العادات السائدة للكلام والتعبير .

ولو أن صوتنا الزاقت ، وعيشنا المثير المتعجل ، كانا يمكننا ولو من أن ننجز قدرا أكبر من العمل ، حتى لو أدى ذلك الى انهيارنا فى النهاية

لكان الأمر مختلفا ؛ اذ لكان هناك شيء من التعويض أو العذر المسوغ للاستمرار على هذا النحو .

ولكن العكس هو الصحيح تماما .

ان العامل المسترخى الهادى الذى يؤدي عمله بسكينة ، وفى غير ما تمجّل — تاركا الأمور تجرى فى أعنتها ، وليس متلهفا على النتائج — هو العامل الكفء .

أما القلق والتوتر والحاضر والمستقبل اذا اختلطت جيمها وتشابك حابلها بنابلها فى عقولنا مرة واحدة فهو أقصر الطرق المؤكدة الى تأخر تقدمنا المستمر وتعميق نجاجنا .

لقد أرسل زميلى البروفسور مونستربرج Münsterberg بعد أن استقر بيننا حديثا — وهو من أدق الناس ملاحظة — بمض ملاحظاته عن أمريكا الى الصحف الألمانية . ولب ما يقول أن مظهر النشاط غير العادى فى أمريكا سطحى وخداع وغرار ، لأنه لا يرجع لشيء سوى عادات الشد والجذب وسوء التناسق التى يرجع الفضل فيها الى التدريب المييب لقومنا وتربيتهم السيئة .

إننى أعتقد أنه قد آن الأوان لتلك الخرافات القديمة والأساطير التى عفى عليها الزمن ، والآراء التقليدية لكى تتغير وتبديل ، وانه اذا بدا لأى منا أن يكتب عن عدم كفاية وعجز وضمف الأمريكى فى أن يفعل بوقته شيئا سوى أن يضيئه فسيجد أن عليه أن يقيم أدلة متناقضة ، يبرهن بها على موضوع بحثه ، مشفوعة بالحقائق الكثيرة التى يقتبسها ومزودة بالتجارب المديدة التى يلجأ اليها لتأييد هذه الحقائق .

واذن — يا أصحابي — اذا كان خلقنا الأمريكى العزيز قد أصابه الضعف والوهن والكلال بسبب كل هذا التوتر الزائد على الحد — ومهما كان لديكم من احتياطي أو تحفظ — فأعتقد أنكم تتفوقون على الحقائق الرئيسية ، فكيف نطب للداء ؟ وأين نلتمس العلاج ؟ .

إن العلاج يوجد طبعا حيث توجد مصادر المرض .

اذا كان اللوم يقع على عادة مرذولة ، أو ذوق ضار ، فلتتغير العادة والذوق .

وعلى الرغم من أنه ليس من الهين أن نلقح ونظم سبعين مليوناً من الناس بمستويات جديدة فاننا ينبغي أن نقر أنه اذا كنا نؤمن فعلا بضرورة ذلك ، فلا بد من أدائه .

ينبغي أن نغير أنفسنا من شعب يعجب بالشد والجذب والقصف في حد ذاتها ويزدرى الأصوات المخافتة والسبل الهادئة الساكنة ويدمغها بالبلادة الى شعب — على تقيض ذلك — يجعل الهدوء والسكينة والوقار مثله العليا ومن أجلها يجب الانسجام واليسر والترفع والكرامة .

واذن فلنعد مرة أخرى الى سيكولوجية التقليد .

هناك طريق واحد لتحسين أنفسنا وذلك بأن يخلق البعض منا مثالا يحتذيه الآخرون وينسجون على منواله ويقلدونه حتى تنتشر العادة الجديدة فى التقليد الجديد والنموذج الجديد فى طول البلاد وعرضها من شرقها الى غربها .

والبعض منا فى وضع يتيح لهم فرصة أوفر من غيرهم لكى يصطنعوا تلك المبادئ الجديدة ويستحدثوا تلك العادات ، والبعض منا أقدر من غيرهم على ذلك بما لهم من شخصيات جذابة آسرة يطيب للناس تقليدها .

بيد أنه لا يوجد شخص حتى هوى الى الدرك الأسفل الذى يستحيل فيه أن يقلده غيره .

يقول ثاكارى Thackeray فى أحد مؤلفاته عن الأمة الأيرلندية : انه لم يكن هناك أبدا ايرلندى بلغ من الفقر أدقمة لدرجة أنه لا يوجد من هو أفقر منه يعيش على حسابه .

وبالتأكيد لا يوجد انسان لا يتسبب سلوكه فى عدوى الغير فى معنى معين وفى جزئى خاص .

ان الميوهين الذين يملأون مؤسساتنا العامة يقلد بعضهم البعض الآخر — ولكن فيم ؟

فى عجائب وغرائب مسلكهم .

واذا قدر لك أن تصطنع الهدوء والسكينة والتناغم فى شخصك نفسه فتستطيع أن تتأكد من أن موجة من التقليد ستنتشر منك تماما كما تنتشر الدوائر الى الخارج فى حلقات ودوائر موصولة عندما تلقى بالحجر فى البحيرة .

ومن حسن الحظ أن ذلك لا يتطلب منا أن نكون روادا مطلقين ، حتى فى نيويورك الآن تألفت جماعة لتجسّن طريقة النطق بالكلام والصحف العديدة تطالعنا بياكورة أعمال هذه الجماعة فى شكل فقرات الغرض منها اثاره القرف منها لكى تنبذها .

والأحسن من ذلك — لأنه أكثر شمولا وجذرية هو مبدأ الاسترخاء تلك البشرى التى تبشر بها الأنسة آنى بيسون كول Miss Annie Payson Call من أهالى بوسطن — فى مجلدتها الصغير الرائع الذى أسمته

« لملقوة بالسكينة » — وهو كتاب جدير بأن يكون في حوزة كل معلم وكل طالب في أمريكا — من الجنسين .

إنكم لا تحتاجون الا أن تسيروا على الدرب الذي مهده لكم غيركم ، ولكن ثقوا بشيء واحد — وهو أن غيركم سيتبعونكم ويترسمون خطاكم من بعدكم .

وهذا يوصلنا الى تطبيق آخر لعلم النفس في الحياة العملية ؛ وهو التطبيق الباقي أماننا الذي سألت اتبهاكم اليه بايجاز ثم أختتم حديثي .

إذا أراد المرء أن يكون مثالا يحتذى في الهدوء والسكينة واليسر ، وأن تكون عدواه فعالة في هذا الصدد ، فانه يشعر غريزيا كلما كان أقل افتعلا اراديا لكي يقلده الغير ، وكلما كان أقل وعيا بذلك رجحت كفة نجاحه . كن الشيء الممكن التقليد وأعف عقلك من كل مسئولية للتقليد .

إن قوانين الطبيعة الاجتماعية ستولى عنك هذه المسئولية وهذه النتيجة .

أما المبدأ السيكولوجي الذي يرتكز عليه هذا المفهوم فهو قانون في غاية العمق والشمول في تكييف وتصريف حياتنا — وهو في نفس الوقت قانون تجاهلناه نحن الأمريكيون وأغفلناه بشكل محزن جدا .

ان المنطوق الاصطلاحي لهذا القانون قوامه .. « ان الشمور الجارف حيال الذات يجنح الى القبض على الترابط الحر لأفكار الشخص الموضوعية والعمليات الحركية » .

والمثال المتطرف لهذه الظاهرة يتجلى في المرض العقلي المسمى باللوثة ( الملائخوليا ) فالمرضى بالسواد ( الملائخوليا ) يزخر من أخصص قدمه الى

قمة رأسه بانفعال حاد مؤلم حيال نفسه ؛ فهو يشعر بالتهديد ، ويدمن  
الشعور بالاثم ، وبأنه مقضى عليه بالهلاك والمحو والضياع .

وعقله يصبح كما لو كان في قبضة كزاز أو كلاب من هذه المشاعر  
الخاصة بموقفه أو وضعه من نفسه .

وتستطيعون أن تقرأوا في كل الكتب التي تعالج موضوع الجنون .  
ان الانسياب المتنوع لأفكار المريض بالسواد ( الملائخوليا ) يتوقف عن  
التدفق ؛ أى ان عمليات الترابط عنده بالتعبير الاصطلاحي — تمتثل بالكف  
وأفكاره تتجدد في نسق كمي لا تتجاوزه وتظل حبيسة وظيفتها الوحيدة  
المملة وهي التكرار الباطني والاجترار الداخلي لحقيقة حالة الضياع واليأس  
التي تبتل في نفس المريض .

يبد أن هذا التأثير الكابت القابض ليس راجعا الى مجرد حقيقة أن  
افعاله مؤلم — لأن الانفعالات السارة عن الذات أيضا توقف ترابط  
أفكارنا .

ان القديس في حالة النشوة الروحية يصبح عديم الحركة ومعدوم  
الاستجابة ووحيد الفكرة ، مثله تماما كمثل « الميلائخولي » المصاب  
بالالتيث .

ومالنا نذهب بعيدا ونضرب المثل بنشوة القديسين ، ونحن نعترف  
ما يحدث في كل منا عندما يعقل الفرح المفاجيء العظيم لساننا ويشل  
تفكيرنا ؟

اسأل الشبان لدى مرجعهم من حفلة أو مشهد مثير أهاج مشاعرهم —  
عن هذا الحفل ، أو هذا المشهد ، فماذا تسمع ؟ « كانت جميلة ! — كانت  
جميلة ! . كانت جميلة ! » . هذا هو كل نوع الاعلام الذي يمدونك به  
حتى تنفث حدة الاثارة والتهيج وتهدأ نفوسهم من بعد تأثير عنيف .

ألم يصب كل واحد منكم ذات مرة — مؤقتا — بحالة نصف جنون من جراء نجاح ساحق أحرزه أو ثروة طارئة هببت عليه بلا سابق انذار أو حظ عظيم واتاه؟

« عظيم . عظيم . عظيم » . هذا هو كل ما نستطيع أن نقوله لأنفسنا في مثل تلك اللحظات حتى نضحك من أنفسنا ومن حماقتنا ذاتها .  
من كل ذلك نستطيع أن نستخلص نتيجة عملية جدا .

فاذا كنا نرغب — أساسا — في أن تكون سلسلة مائلاتنا وارادتنا وافرة غزيرة متنوعة وفعالة ، فيتحتم علينا أن نكون في أنفسنا عادة تحريرها من التأثير الكابت الاعتقالي لها بالتفكير والتأمل فيها باستمرار وبالتركز الأناي الذي يشغلنا باستمرار في التفكير في نتائجها .

مثل هذه العادة — كغيرها من العادات — يمكن تكوينها .

إن الحصافة والواجب واعتبار الذات وانفعالات الطموح وانفعالات القلق لها بالطبع دور لازم تؤديه في حياتنا .

ولكن أقصرها بقدر الامكان على المناسبات التي تضطر فيها الى اتخاذ قرارات عامة وتحديد خططك للهجوم وأبعدها عن التفاصيل .

وساعة أن تصل الى قرار حاسم ويصبح عمله واجب التنفيذ اصرف النظر عن المسؤولية والاهتمام بالنتيجة اطلاقا .

وفي كلمة — أرخ العنان — وأطلق السراح لجهازك الفكرى والعملى ، ودعه يمش على سجيته حرا ، وثق أن الخدمة التي سيؤديها لك ستكون مضاعفة الجزاء .

من الدارسون الذين يصابون بالذعر ويصبحون كالفأر في المصيدة عند الامتحان ؟

انهم أولئك الذين يتوقعون الإخفاق ويشعرون بالأهمية البالغة لعملية الامتحان . ومن هم أولئك الذين يجيبون الاجابة السديلة؟  
انهم أولئك الذين لا يغالون في المبالاة . ان أفكارهم تنساب وتتدفق من ذاكرتهم من تلقاء نفسها .

لماذا نسمع تلك الشكوى التي تتردد كثيرا في جنبات نيوانجلند من أن الحياة الاجتماعية فيها أقل وفرة ودسامة وتميرا وأكثر اجهادا وتعبا مما هو عليه الحال في بقية أجزاء العالم ؟

إلامّ ترجع هذه الحقيقة — ان كان ثمة حقيقة ان لم يكن مردها الى الضمير المبهط بالكلطوم للناس الذين اما أن يكونوا خائفين من أن يقولوا شيئا تأفها جدا وبديها جدا ، أو شيئا لا يؤمنون به أو شيئا لا يستحق المحادثة أو شيئا ليس كافيا ، ولا وافيا لسبب أو لآخر — بالمناسبة القائمة؟  
لا يمكن لمحادثة أن تمضى وتجري في هذا البحر المعاج المتلاطم الأمواج من مثل تلك المسئوليات وألوان الكبت والكف والاعتقال .

ولكن المحادثة تزدهر ، والمجتمع يتألق بالنضارة ، ولا تصبح ملة من جانب أو مجهدة ترهق الناس من أمرهم عسرا ، كلما تناسى الناس هذا الارتباب والتوجس وأرخوا العنان لقلوبهم وألستهم تمضى على السجية بما يشتهون .

إنهم يتحدثون كثيرا في هذه الأيام في الدوائر البيداجوجية عن واجب المعلم في التحضير لكل درس مقدما .

وهذا مفيد الى حد ما .

ولكننا معشر الأمريكيين لسنا بالتأكيد من يوجه اليهم هذا الوعظ .

اثننا نعرف جيدا ما نريد وما ينبغي لنا أن نفعل . ان حرصنا لشديد  
ولا نحتاج الى مزيد .

أما النصيحة التي أتوجه بها الى معظم المعلمين فهي — كما جاءت على  
لسان واحدة — هي نفسها معلمة رائعة بارعة اذ قالت :

« أعدوا أنفسكم جيدا في المادة بحيث تكون دائما في متناولك وتحت  
تصرفك كصنبور الماء وبعد ذلك اترك الأمر لتلقائيتك في قاعة الدرس  
ولا تهتم بشيء آخر بعد ذلك » .

ونصيحتي للدارسين — خصوصا البنات — هي شيء شبيه بذلك :  
كما أن جزير الدراجة قد يكون مشدودا أكثر مما يجب ، فكذلك قد  
يكون اهتمام الشخص وضميره مشدودين أكثر مما يجب ، ومتوترين لدرجة  
تعرقل انطلاق عقله وتدفق أفكاره .

خذوا مثلا الفترات التي تتلاحق فيها الامتحانات على أيام متتابعة .  
إن درهما من النغم العصبى المنسجم في الامتحان يساوى أربطالا عدة  
من الدراسة التي يشوبها القلق والتوتر قبيل الامتحان .

إذا أردت حقا أن تتفوق في امتحان ما فألق بالكتاب بعيدا في اليوم  
السابق للامتحان وقل لنفسك « اننى لن أضيع دقيقة واحدة أخرى على  
هذا الشيء التمس ، ولا أبالي مثقال ذرة سواء أنجحت أم لا » .

قل هذا باخلاص واشعر به ، ثم اخرج والمب ، أو اذهب الى فراشك  
ونم ملء جفنيك . أنا متأكد أن النتائج في اليوم التالي ستشجعك على  
اتباع هذه الطريقة باستمرار .

لقد سمعت هذه النصيحة موجهة لاحدى الدراسات من المس كول  
Miss Call التي أشرت الى كتابها عن الاسترخاء العضلى منذ برهة ،

وفي آخر كتاب لها بعنوان « كسألة طبيعية » نجحت المؤلفة في التبشير بالاسترخاء الأخلاقي وبإسقاط الأشياء من العقل وعدم الغلو في المبالاة حيث لا يكون لها أدنى مسوغ أو مبرر .

ليس قسيسونا ووعاظنا فقط ، ولكن أصدقاءنا من اللاهوتيين والنفسائين والذين يشفون العقول من مختلف الملل والنحل الدينية — كل أولئك يضربون على نفس الوتر .

فاذا تعاون على ذلك الأطباء والجماعات المتحدة المختلفة المعنية بشفاء العقول ، والكتاب من أمثال المستر درسر Mr. Dresser وبرينتس ملفورد Prentice Mulford ، وهوارس فلتشر Horace Fletcher والمستر ترين Mr. Trine وجمهور المعلمين بالمدارس وانضم اليهم قراء المجلات في ترديد هذه النغمة فانه يبدو أننا على بداية الطريق في اتجاه تغيير عاداتنا العقلية الأمريكية الى شيء أكثر سكوناً وقوة .

ان القلق يعنى دائماً ، وفي مختلف الحالات ، كما للارتباطات ، وفقدانا للقوة الفعالة .

وطبعاً ان سيد العلاجات للقلق هو العقيدة الدينية ، وهي مسألة تعرفونها أيضاً طبعاً .

ان الموجات العاتية التي تغشى سطح الماء مزمجرة عارمة لا تمس الأجزاء العميقة من المحيط ، وانما يظل القرار هادئاً ساكناً . وكذلك الأمر بالقياس الى الشخص الذي يسك بزمام كثير من الحقائق المتسعة الخالدة ، فان التقلبات المؤقتة التي تتور سبيله ومصيره الشخصى تبدو تافهة نسبياً .

فالشخص المتدين حقاً — بناء على ذلك — هو الشخص الراسخ الذي لا تهزه الأحداث — الزاخر بالسكينة وهدوء العقل ، المستمد بكل هدوء لإداء أى واجب تأتى به الأيام .

ومن أروع الأدلة على ذلك ما ورد في مؤلف صغير قدرلى أن أقرأه حديثاً وعنوانه « ممارسة وجود الله — أحسن ضابط لحياة مقدسة للأخ لورانس Brother Laurence — وهى محادثات ومراسلات لنكولاس هرمان من اللورين ترجمت من الفرنسية » (١) .

ولقد اتقيت منها بضع فقرات — حيث ان المحادثات تجرى بطريقة غير مباشرة .

كان الأخ لورانس راهبا من الرهبان التسولين ذوى اللباس الأبيض الذين غيروا دينهم فى باريس سنة ١٦٦٦ « وقال انه كان تابعا فى خدمة م . فيبيرت M. Fieubert الخازن وانه كان شخصا أخرق متلبكا يكسر كل شىء . وانه رغب فى الالتحاق بالدير ظنا منه أنه سيلقى هناك ألما شديدا من جراء تلبكه وبسبب الأخطاء التى يرتكبها ، وبذلك يضحى لله حياته بما فيها من لذائذ — ولكن الله خيب رجاءه ، اذ لم يلق الا الخذلان وعدم الرضا فى تلك الحالة .. » وانه أصيب بخبل فى عقله لمدة طويلة من جراء اعتقاد خاص بأن اللعنة ستحل به — وان الناس جميعا لا يستطيعون اقتناعه بعكس ذلك «ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا»، ولكنه ناقش نفسه فى الموضوع وتمقله مع نفسه على النحو التالى :

لقد اندمجت فى حياة دينية من أجل حب الله فحسب . وحاولت أن أتصرف من أجله فقط — وسأظل دائما أتصرف من أجل حب الله البحت — وسأضمن هذا الخير والجزاء على الأقل ، وهو أنه حتى الموت سأكون قد فعلت كل ما فى وسعى وبذلت قصارى جهدى لأحبه .... وانه من ذلك الوقت قد عاش حياته فى حرية تامة ونعيم مقيم .

(١) Fleming H. Revell Company; New York.

« وانه عندما تعرض مناسبة لممارسة فضيلة فانه يتوجه الى الله بها قائلا : « يا الهى ، أنا لا أستطيع أن أفعل ذلك مالم تهبنى المقدرة عليه » . وانه عندئذ منح قوة فوق كفايته .

وانه عندما كان يخفق فى أداء واجبه ، لم يكن يفعل شيئا سوى الاعتراف بخطيئته قائلا لله : « لن أتصرف أبدا على خلاف ذلك ، فاذا تركتني لنفسي فانك أنت الذى ينبغي أن يحول بيني وبين إخفاقي وتصلح ما فسد » . وانه بعد ذلك لم يتعب نفسه بشأنها وانما سلم أمره لله تسليما .

« وانه أرسل أخيرا الى برجندى Burgundy ليشتري تعوين النييد للجمعية ، وانها كانت مهمة لا يرحب بأدائها ، لأنه لم يكن حاذقا فى أعمال البيع والشراء ، ولأنه كان أعرج وانه كان عاجزا عن التجوال فى التلك المشحون بالتدحرج من فوق البراميل ، وانه قال لله : انه خرج فى هذه المهمة تنفيذا لارادته ومن أجل طاعته وانه بعد ذلك وجد المهمة ميسرة بسهولة وانه اتقن أداءها .

وانه أرسل الى أوفيرن Auvergne فى العام السابق للمهمة نفسها وانه لا يدرى كيف اتهمت المهمة ولكنها أنجزت على أحسن وجه .

« وبنفس الطريقة فى عمله فى المطبخ ( وهو عمل يكره أداءه بطبيعته ) ولكنه عود نفسه أن يؤدي كل شيء جبا فى الله وبالصلاة فى كل المناسبات لكى يمنحه البركة التى تمكنه من اتقان عمله . ولقد وجد كل شيء ميسرا يمضى سخاء رخاء طوال خمسة عشر عاما قضاها فى الخدمة هناك .

« وانه كان مسرورا جدا من الوظيفة التى كان يشغلها الآن . ولكنه كان مستعدا لتركها كما ترك الوظيفة التى قبلها ، لأنه كان يدخل السرور على نفسه فى كل حالة بأن يؤدي أشياء صغيرة من أجل حب الله .

« وإن لطف الله وفضله وكرمه أكدت له أنه لن يتخلى عنه كليا ، وأنه سيبه القوة ليتحمل ما قد يمتحنه به من شر يحيق به ، وهو لذلك لا يخاف شيئا ، ولا مناسبة عنده ليستشير أحدا عن حاله . وأنه عندما حاول استشارة أحد في أمره زاد الطين عنده بلة » .

هذه البساطة القلبية والسذاجة الصادرة من الأخ الطيب لورانس ، واسترخاء كل هم وقلق فيه وتوكله على الله — منظر منمش .

لقد ظلت مطارق الوعظ بحتمية « الشعور بالمسئولية طوال اليوم » في منطقتنا فيوانجنلد — تتوالى علينا بما فيه الكفاية وأكثر ! بما فيه الكفاية وأكثر لمدة طويلة على أية حال قطما ، ولكنها فاقت وزادت عن الحد بالقياس الى الجنس اللطيف .

إن ما تحتاج اليه الدارسات والمعلمات حاجة ماسة وملحة اليوم ، ليس المبالغة والزيادة في توتراتهن الأخلاقية ، ولكن الاقلال منها وتهذئة نغمها العالي . كثيرا ما أخشى أن تتخذ إحدى مستمعاتي من الجنس اللطيف قرارا حاسما لكي تصبح مسترخية بجد — مهما كلفها ذلك — بقية حياتها ! ولا حاجة بي الى القول بأن هذه ليست هي الطريقة المثلى لذلك . ان طريقة إحراز هذا الهدف — على الرغم مما يبدو فيها من تناقض — هو أن تكوني حقا غير مبالية بماذا اذا كنت تعلمين ذلك أم لا — ثم — بفضل الله ستجدين نفسك مرة واحدة تعلمين ذلك ، وعندما تتعلمين كيف قدر لك أن تحرزي الهدف ، وعلى أى نحو فالك ( بفضل الله ثانيا ) ستمكين من الاستمرار في الاسترخاء وترك الأمور تجري في أعنتها ولا تبيتين الاخالية البال .

بهذه الرغبة التي تهب في صدري أختم هذا التحديث آملا أن يمارس كل من استمع لهذه المحاضرات هذه التجربة السعيدة الفسوحة بمبير الاسترخاء والسكينة فتعيشون بنفوس مطمئنة راضية مرضية .

## الفصل الثاني

### عن ظاهرة عَمَى مَعَيْنٍ فِي الْإِنْسَانِ

ان أحكامنا على قيمة الأحياء والأشياء — كبيرة كانت أم صغيرة ،  
غثة أم سمينة — تتوقف على المشاعر التي تثيرها فينا .

وعندما نحكم على شيء بأنه عزيز غال — نتيجة للفكرة التي نضمه في  
إطارها — فليس ذلك الا لأن الفكرة نفسها مرتبطة من قبل بشعور .

لو أننا كنا فاقدين للشعور جذريا ، وكانت الأفكار هي الأشياء الوحيدة  
التي يسيغها عقلنا ، لفقدنا في لمحة عين كل رغباتنا بالقياس للى ما نحب  
ونكره ، وما نصبو اليه وما ننبذه ، ولأصبحنا عاجزين عن أن نصف أى  
موقف أو خبرة في الحياة بأنه أكثر قيمة أو أهمية من غيره .

ان العمى الذي يصيب الناس — الذي سنعالجه في هذا الحديث —  
هو العمى الذي يصيبنا جميعا ويختم على أبصارنا بنفاوة صفيقة تحول  
بيننا وبين رؤية مشاعر المخلوقات والناس الذين يختلفون عنا .

نحن كائنات عملية ، لكل منا وظائف محددة ، وواجبات معينة يؤديها .  
وكل واحد يشمر شعورا حادا بأهمية واجباته وأهمية المواقف التي  
تقتضيها وتدعو اليها تلك الواجبات .

يبد أن هذا الشعور — في كل منا — سر حيوى عزيز علينا ، فننتظر  
من الآخرين أن يشاركونا في الشعور به والمطف عليه ، ولكن هيهات ! ذلك  
أن الآخرين غارقون الى آذانهم في أسرارهم الحيوية العزيزة عليهم لدرجة

لا تسمح لهم بمشاركتنا في الشعور أو التعاطف مع أسرارنا الحيوية العزيزة علينا .

من هنا تنشأ سخافة آرائنا وما يصاحبها من ظلم واعتساف وجور ، ما دامت تتصل بأهمية حياة أناس غريبين عنا .

ومن هنا ينشأ الزيف في أحكامنا ما دامت تفرض البت بطريقة مطلقة في قيمة أحوال قوم آخرين ومثلهم العليا .

خذ مثلاً العلاقة التي بيننا وبين كلابنا الذين نربط معهم بصلات وروابط أشد وثاقاً من معظم صلاتنا الأخرى في الحياة ، ومع ذلك — خارج نطاق هذه الصلة وهذا الرباط من الوداد ، فما أشد غنت وغباوة كل فريق بالقياس الى كل ما يهم الطرف الآخر في الحياة ويجعل لها طعماً وقيمة ومعنى عنده . هذا هو موقعنا من سرورها المفرط لمصممة العظام في ظلال السياج وللبصبة بأذنانها وهي تتشمم الأشجار وتتسكع تحت أعمدة الاضاءة . وهذا هو موقعها بالقياس الى لذائذ الأدب والاستمتاع بالفن .

عندما تجلس في استرخاء بعد عمل يوم شاق تقرأ قصة غرام مثيرة تستحوذ على كل شغفك واتباهك ، فما حكم كلبك على سلوكك ؟ .

بكل ما فيه من حسن نية واعزاز لك فان طبيعة مسلكك تقع خارج نطاق فهمه وادراكه على الاطلاق .

كيف تجلس هنالك كالصنم الذي لا يحس ، وكان الأخرى بك أن تصحب كلبك في نزهة قصيرة لتلقى اليه خلالها بالعصا ليلتقطها ويمسك بها ؟

ما هذا المرض العجيب الذي يتتابك كل يوم فتمسك بالأشياء وتحملق فيها بالساعات مشلول الحركة مجرداً من كل حياة واعية ؟ .

ان حكم المشاهد مقضى عليه بأن يعوزه معرفة أصل المسألة ولمس الحقيقة والوصول إليها .

بيد أن الشخص موضوع الحكم يعرف جزءا من عالم الحقيقة الذى يفشل الحكم المشاهد فى تبيينه — فهو يعرف أكثر والمشاهد يعرف أقل، وكلما نشب صراع فى رأى وخلاف فى الرؤية فاننا نجح الى الاعتقاد بأن الحق فى جانب من يشعر أكثر وليس فى جانب من يشعر أقل .

دعونى أذكر لكم مثلا شخصا من ذلك النوع الذى يصادف كلا منا يوميا :

منذ سنوات عديدة فى أثناء قيامى برحلة فى جبال كارولينا الشمالية مررت بعدد كبير من الخور — كما يسمونها فى تلك المناطق — وهى مداخل أو رعوس وديان صغيرة بين التلال — وكانت هذه الخور قد تم تمهيدها وزرعها حديثا .

وكان الانطباع على عقلى انطباعا قدرا لا خفض فيه ثقل الوطأة على النفس .

ذلك أن كل ساكن استقر فى تلك المنطقة عمد الى قطع الأشجار التى يسهل عليه قطعها وترك جذوعها التى سودتها الشمس الحارقة — واقعة ناتئة ، أما الأشجار الكبيرة فقد زنها وأمات نموها حتى لا تورق وتظل المنطقة المحيطة بها . ثم بنى كوخا من الخشب وملا شقوقه بالصلصال وأقام سياجا طويلا مترجا حول مسرح خرابه لكى يحول بين الخنازير والماشية وبين الدخول الى ساحته . وأخيرا زرع بلا نظام المساحات الواقعة بين الجذوع المقطوعة والأشجار بالذرة الهندى الذى نبت ونما بين قطع الأخشاب الصغيرة ، وهناك سكن واستقر مع زوجته وأطفاله — وحاجاته

— من بلطة ، وبنديقية ، وبضع أوان منزلية ، وبعض الخزائير التي كانت جماع ممتلكاته .

لقد تم له تدمير الغابة وتشويهها ، والتحسين الذي أدخله عليها كان تحسينا بشعا ، كان نوعا من القرحة — بدون أى عنصر من عناصر الجمال الصناعى الذى يعوض ما فقد من جمال الطبيعة .

قبيحة — حقا — كانت تبدو حياة القعيد القرفصى وهو يبخر العباب — على حد تعبير البحارة — تحت ساريات عاريات مبتدئا ثانية من — النقطة التي بدأ منها أسلافنا دون أن يفيد مثقال ذرة من نتائج الحضارة والاختراعات التي تمت في تلك الفترة التي مرت بها الأجيال المتعاقبة منذ أسلافنا الأوائل حتى اليوم .

قل ما شئت عن العودة الى الطبيعة !

هذا ما قلته لنفسى ، وقد باغتتنى الوحشة والكآبة وأنا راكب السيارة عبر هذا المنظر .

قل ما شئت عن الحياة الخلوية في الريف عندما يتقدم بك العمر — ضامانا لك ولأولادك من بعدك !

كلا — لن يكون كذلك أبدا على رقعة أرض جرداء عارية ، وليس لك الا يدان عاريتان تخوض بهما المعركة !

كلا — لن يكون كذلك أبدا بدون أحسن ثمرات الحضارة وتائجها لكي تدخل في هذا النسيج !

ان ألوان الجمال والترف والنعيم التي خلقتها لنا القرون ، وذوب التراث الانساني العظيم ، أمر مقدس .

فهو تراثنا وحقنا بالميلاد .

لا يوجد شخص متحضر يتعين عليه أن يرغب في أن يعيش يوما في حياته في مثل تلك الحالة من المرء المجرد ، والبدائية المنفرة .

ثم قلت لخبير الجبال — الذى كان يسوق السيارة ويعمل دليلا لى فى الرحلة — : « أى نوع من الناس هؤلاء الذين يمهدون هذه الخور ؟ » فأجاب :

« كلنا — لأننا لن نستطيع أن نكون سعداء هنا ما لم نزرع هذه الخور » .

عندئذ شعرت بأننى أخطأت فهم الأهمية الباطنية للموقف برمتى ؛ لأن اقتلاع أشجار الغابات وتمهيدها للزراعة لم يكونا ينطقان لى الا بشىء واحد هو التمرية وتجريد الطبيعة من جمالها ، وظننت أن أولئك الذين مهدوها بسواعدهم القوية وبلطهم الطبيعة يحملون الشعور بنفسه ، ولكنهم عندما كانوا ينظرون الى جذوع الأشجار الكريمة المنظر لم يكونوا يفكرون الا فى اتصايرهم على الطبيعة فيمتلئون زهوا وقظارا واحساسا بالقوة والسيطرة عليها .

ان عروق الأخشاب والأشجار المزنة والألواح المشطورة كانت كلها تنطق بمرق الجهد الأمين ، والكبد الموصول ، والجزاء الوفاق .

وكان الكوخ ملاذا وضمانا للأمان والطمأنينة للزوجة والأطفال .

وبالاختصار فان تمرية الطبيعة وتجريدها من الجمال — الذى لم يكن بالنسبة لى سوى صورة بشعة وقعت على شبكة العين — كان بالنسبة لهم رمزا عبقا فواحا بالذكريات ، صداحا بنشيد مؤلف من نعم الواجب والكفاح والنجاح .

لقد كنت أعمى بالقياس الى مائلاتهم الخاصة بطروفهم تماما كما سيكونون هم عميا بالقياس الى مائلاتى لو قدر لهم أن يلقوا نظرة على حياتى الأكاديمية فى كمبردج .

مادامت سبيل حياة ما تنقل لمن يحيها شغفا — وشوقا ورغبة — فعندئذ تصبح الحياة ذات معنى أصيل ، وذات قيمة يمتاز بها .

وأحيانا تكون الرغبة أكثر ارتباطا بالنشاط الحركي ، وأحيانا تكون أكثر ارتباطا بالمدركات ، وحينا آخر بالخيال ، وطورا بالفكر التأملی .

ولكن أينما وجدت وجد الشغف والرغبة ووجد الألم ووجدت الحقيقة التي تثير وتحفز ، ووجدت « الأهمية » في معناها الحقيقي الايجابي الوحيد الدال على الحقيقة أيا كانت ، وأنى كانت .

ولقد شرح روبرت لويس ستيفنسون — Robert Louis Stevenson هذه الظاهرة بحالة اشتقتها من ميدان الخيال في مقال كتبه أعتقد أنه يستحق الخلود من ناحية جوهر حقيقته ، ومن ناحية روعة صياغته على السواء .  
قال ستيفنسون ..

« حوالي أواخر سبتمبر عندما اقترب موعد الدراسة وكانت الليالي قد بدأت تظلم كنا نتقاطر من مساكننا وكل منا يحمل فانوسا من الصفيح من النوع المعروف بعين الثور .

وكان هذا الشيء شائعا جدا لدرجة أنه خلف أثرا باقيا في تجارة بريطانيا العظمى ، وبدأ البقالون في الوقت المناسب يزخرفون نوافذهم بنوعنا المفضل الخاص من الأجرام المضيئة .

وكنا نحملها مشدودة «بابزيم» الى الوسط فوق حزام الكريكت ، وكنا نلبس فوقها معظما مقفلا بأزرار حسب ما تقضى به الأصول الشديدة الصارمة للعبة !

وكانت الرائحة تفوح نفاذة من نقطة الصفيح .

ولم تكن لتحترق أبدا ، وان كانت دائما تحرق أصابعنا ! ولم تكن هناك أية فائدة من استعمالها ، وانما كانت لذتها مجرد لذة وهمية تصورية ، ولم يكن يطيب لأى ضبى أى شىء آخر سوى أن يحمل فانوس عين الثور تحت معطفه .

وكان الصيادون يستعملون فوائيس فى قواربهم ، وأعتقد أنهم هم الذين أوحوا الينا بهذه العادة ، ولكن فوائيسهم لم تكن من نوع عين الثور ولم نلعب أبدا صيادى سمك .

وكان رجال الشرطة يحملونها مثبتة فى أحزمتهم ، ولقد قلدها لهم بلا شك فى ذلك ، بيد أننا لم ندع أننا من رجال الشرطة .

لقد راودتنا حقا فكرة اللصوص ، وكنا بالتأكيد معجبين بالقرون الماضية عندما كانت الفوائيس أكثر شيوعا ، وقرأنا بعض كتب القصص التى وجدنا الفوائيس تحتل مساحة كبيرة فيها من الأهمية .

ولكن فرها لأى سبب وضع هذه الأسباب مجتمعة الكل فى الكل ، فان لذة هذه المسألة كانت لذة حقيقية ولم يكن الولد منا يريد شيئا آخر سوى أن يحمل فانوس عين الثور تحت معطفه .. وبحسبه ذلك .

« وعندما كان يلتقى اثنان من هذه الجحوش فيسأل أحدهما الآخر فى لهفة : « هل معك فانوسك ؟ » ويجب الآخر فى ارتياح ورضا : « أجل » ....

تلك كانت كلمة السر ، وكانت ضرورية جدا لأنه ، نظرا لأن النظام كان يقضى بالمحافظة على مجدنا والاحتفاظ بسرته — فلا يمكن لأحد أن يتعرف حامل الفانوس الا بالرائحة ( مثله تماما كمثل القط الأرقط ) .

وأحيانا كان يدخل أربعة أو خمسة منا فى أحد قوارب الصيد ( حمولة عشرة رجال ) بلا شىء فوقهم سوى عارضات القارب ، لأن كابين السفين

كان في العادة مغلقا — أو يختارون خنا يتكتلون فيه والريح تصفر من فوقهم .

ومن ثم تفك أزرار المعاطف وتتجلى عن فوانيس عين الثور ، وفي التلائم المختلف الألوان في جناح الليل العاصف الممول وقد بعثت فيهم جلجلة وصليل صفيح الفوانيس شعورا بالمرح كمن يتبادلون الأنخاب ، كان هؤلاء السادة الأفاضل من الصغار المجدودين يقبضون معا في ذلك الحجر البارد ، أو يتوسدون الشقوق الندية لقارب الصيد ثم يتمنون أنفسهم بالاغراق في فاحش القول .

والويل لي اذ لا أستطيع أن أسرد بعض عينات من هذا القول !  
ولكن هذا الكلام لم يكن سوى ظرف هيأته المناسبة ، وهذه الاجتماعات لم تكن سوى أحداث عارضة في حياة حامل الفانوس .

ان جوهر هذه السعادة والغبطة كان أن تمشي وحدك في سواد الليل البهيم ، وقد أحكمت اغلاق معطفك فوق الفانوس بحيث لا ينفذ منه شعاع . وسواء انتظمت في مشيتك وخففت الوطء أم قرعت الأرض بخطوات تخرق بها أديمها ، فان أهم شيء هو أن تكون مجرد عمود من السواد يدلف في الظلام ، وأن تظل طوال الوقت شاعرا في صميم صميمك بتلك النشوة السرية الخاصة التي تتمثل في قلبك الحنون العابث ، وهو عالم بأته يحمل في منطقتة فانوس عين الثور ، ثم تنتشى وتغنى بسبب هذا الشعور .  
لقد قيل ان شاعرا مات صغيرا واختنق في صدر أشد النساء بلادة وبلاهة .

ولعل الأحجى أن صناجة ( أقل شأنا ) يظل حيا في كل حالة تقريبا ، ويعطى لحياة صاحبه طعما ونكهة .

ان خيال الانسان الخصيب الماهر المتقلب المتنوع بما فيه من طفلية تمضى على السجىة لا اصطناع فيه ولا تعمل ، هذا الخيال لم يلق الانصاف الذى هو اهل له .

ان حياة الانسان من ظاهرها الخارجى قد لا تبدو اكثر من تل او متراس غير مشذب من الطين ، بيد ان هذا المتراس ينطوى فى باطنه على غرفة ذهبية تحتل قلبها ، حيث يسكن الانسان فى غبطة وسعادة . وعلى الرغم من أن طريقه يبدو للملاحظ الخارجى مظلمًا مجللاً بالسواد فان عنده فانوس « عين الثور » يحمله فى طياته ويثبته فى داخله .

ان هناك قصة خرافية تكاد تلامس نخاع الحياة وصميمها ، انها قصة الناسك الذى كان يجوس خلال الغابة وسمع طائرا يشدو بأغنية فأصغى الى تطرية أو اثنتين ، وعندما عاد الى ديره وجد نفسه غربيا عند أبوابه ، لأنه غاب عنه خمسين عاما ، ولم يكن قد بقى على قيد الحياة من رفاقه سوى واحد فقط استطاع أن يعرفه .

ان هذا الساحر الفاتن لا يفنى ويشدو فى الغابة فقط على الرغم من أنها قد تكون موطنه . ان الغابة ليست المكان الوحيد الذى يشدو فيه هذا الصداح . انه يشدو فى أكثر الأماكن كآبة وغما .

ان البخيل يسمعه ويضحك فى سره وتمضى أيامه كالحظات سارة بارة .

ولقد استطعت أن أثير شدوه وأنا قابع وحدى على تلك الألواح العارية وليس ممي من أدوات سوى فانوس ذى رائحة كريهة .

ان كل الحياة — التى ليست مجرد حياة آلية — يتكون نسيجها من خيطين : البحث عن هذا الطائر والاستماع له . وهذا هو الذى يجعل من

الصعب جدا تقدير قيمة الحياة ، ويجعل لذة البحث وتمعن الاستماع مستحيلتي النقل للغير .

وهذه المعرفة بالذات ، مضافا اليها تذكر تلك الساعات الحلوة الندية الحظيظة التي غنتي فيها الطائر لنا ، هي التي تملؤها بذلك العجب والدهش عندما نولّي وجوهنا شطر صفحات الواقع .

هنالك — بالتأكيد — نجد صورة للحياة قوامها الوحل والحديد الجامد والرغبات الرخيصة والمخاوف التافهة — سواء تلك التي نخجل من تذكرها أو تلك التي لا يعيننا نسيانها — ولكننا لا نسمع حسا ولا خبرا من ذلك البلبل الصداح الذي يلتهم الوقت التهاما .

« افرضوا أننا أتينا ( في مثل تلك الحكاية الواقعية ) لنشاهد حاملي الفوائس الجالسين القرفصاء فوق تلك الألواح ، ثم وصفنا الأولاد بأنهم في غاية البرودة ، وأن المطر كان ينهمر فوقهم كأفواه القرب ، وأن الوحشة كانت تحتوشهم ، والكآبة تحوط بهم في هذا المكان — فليكن هذا صحيحا — وأن حديثهم كان تافها وفاحشا . وهذا صحيح أيضا لعين الملاحظ الخارجي — كان هؤلاء الأولاد مبتلين وفي غاية البرودة ، وتكتنفهم الوحشة والكآبة ، ولكن سلمهم أنفسهم يقولوا لك أنهم كانوا في جنة من النعيم والسعادة قوامها فانوس ذو رائحة تفاذة كريهة .

« ودعوني أكرر لكم ثانية أن قوام سعادة الانسان غالبا ما يصعب تحديده ، فقد يتوقف أحيانا على مجرد قطعة صغيرة كالفانوس ، وقد يكمن في البواطن الغامضة للسيكولوجية ، ورباطه بالعالم الخارجي يكون عندئذ أوهى من نسيج العنكبوت . بل قد يكون مقطوع الصلة به وتصبح حياة المرء الحقيقية التي يرتضيها ويتقبلها ويصبو اليها في عالم الخيال والوهم

ولا شأن لها بالواقع الخارجى . فى مثل تلك الحالة ينساب الشعر فى عالم الباطن .

كل هذا والملاحظ الخارجى ( ذلك المسكين بوثاقه وأدته وبراهينه ) فى عالم أجنبى خارجى . يرصد ويحسب ويقدر ويستنتج واقعا خارجيا ليس هو الواقع الباطنى ؛ لأنك اذا اقتصرت على النظر الى الرجل ، وبنيت حكمك على ذلك فقد خدعت نفسك . انك لن ترى سوى الساق التى يستمد منها غذاءه ، ولكنه هو نفسه رابض فى أعلى الشجرة وسط تلك القبة الخضراء من الأوراق والغصون المورقة التى تسمع أنغام الريح وتعشش فيها البلابل .

والواقعية الحقيقية كانت واقعية الشعراء الذين تسلقوا وراءه وصعدوا اليه فى خفة السنجاب ورشاقتة وألقوا نظرة على ذلك العالم العلوى الذى يعيش فيه .

والواقعية الحقيقية — دائما وفى كل مكان — هى واقعية الشعراء الذين يتلمسون مكن السعادة ومريض البهجة ثم ينغمونها ويترنمون بها ويصدحون بها بأصوات تملو على الغناء وتتفوق عليه .

فاذا افتقدنا مكن السعادة افتقدنا كل شيء : فى سعادة العامل يكمن معنى أى عمل ، وفى لذة الأداء تتلصق معنى الأداء وقيمه . وهذا هو التفسير ، وهذا هو المسوغ .

ان الذى لا يعرف سر القوانيس لا يجد أى معنى لمشهد هؤلاء الأولاد فوق ظهر السفينة ، ولن يستطيع له تفسيراً ولا تعليلاً .

ومن هنا ينشأ ذلك الوهم والسراب الذى تحسبه الكتب الواقعية حقيقة تبني عليها حقائقها ، حيث تفتقد فى كل منها ذلك الشعر الشخصى ،

وذلك الجو الساحر الفاتن الأخاذ ، ذلك القوس قزح الذى يلونه الخيال  
ويكسو بألوانه ما يعرّيه « الواقع » ويضفى نبلا وروعة على الحقير التافه .

هذه الكتب الواقعية بحقائقها التى تسقط من الحياة ميتة كجلمود  
صخر حطه السيل من عل ، بدلا من أن تعلق فى أجواز الفضاء كالمنطاد  
يجوس خلال ألوان الغروب ، كل لون فيها حقيقة ، وكل منها لا يمكن  
تصوره ، اذ لا أحد يعيش فى الحقيقة العارية الخارجية بين الأملاح والأحماض  
وانما فى « واقع » تلك الغرفة الدافئة من عقله ذات النوافذ المزخرفة  
والسقف المزركشة والجدران ذات الطبقات » \* .

هذه الفقرات هى أروع ما قرأت فى كل إنتاج ستيفنسون .

« اذا افتقدنا مكن السعادة ، افتقدنا كل شيء » ما أصدق هذا

القول .

ولكن الانسان فان ، له حدوده وقيوده ، ولكل واحد منا نوع من العمل  
الواحد الذى يتخصص فيه .

ونظن أنه لا يمكن بذل الجهد والطاقة فى خدمة واجباتنا حيال ذلك  
العمل المتخصص الا بصد قلوبنا وتجميدها واغلاقها فى وجه أى شيء  
لا يشبه تلك الواجبات .

ان اقتصار سعادتنا على نوع واحد من المتعة ، واغلاق واىصاد أنفسنا  
وامانتها حيال كل شيء آخر هو الشن الذى يتحتم علينا أن ندفعه لكى  
نصبح مخلوقات عمليين .

ولن ترفع غشاوة الواقع الجامد الا عن عيني حالم نرثى له ، أو فيلسوف

\* "The Lantern - bearers", in the volume entitled 'Across the Plains' Abridged  
in the Quotation.

أو شاعر أو هيمنان ، أو عندما يتحول الرجل العملى العادى الى عاشق ولهان . عندئذ تومض البصيرة فتنفذ الى عالم الاخراج ، كما أسماه كليفور د Clifford — ذلك العالم الشاسع الواسع للحياة الباطنية التى تختلف جدا عن مظهرها الخارجى — هذا الوميض ينير عقولنا .

ثم يختلط عندنا كل ميزان القيم المألوفة وتبعثر ألسنا شذر مذر ، وتنفجر اهتماماتها الضيقة وتتناثر ويختفى أفقنا الضيق ويتمين علينا أن نصطنع مركزا جديدا واتجاها جديدا .

ولقد أحسن زميلى جوزياه رويس Josiah Royce وصف هذا التغيير بأن قال :

« ما هو اذن جارنا ؟ لقد اعتبرت شعوره وتفكيره — مختلفين عن شعورك وتفكيرك ، وقلت لنفسك ( ان الألم فيه ليس كالألم فى ولكنه شيء سهل عليه احتماله ) . انه يبدو لك كما لو كان أقل حياة منك ، فحياته باردة باهتة ، وناراها خامدة بالقياس الى رغبتك المتأججة وعلى هذا النحو المعتم ، وبالغريزة عشت مع جارك دون أن تعرفه لكونك أعمى . لقد جعلت منه شيئا لا ذاتا نابضة بالحياة . اطرح هذا الوهم وألقه وراءك ظهريا ، وحاول أن تعرف الحقيقة ببساطة . ان الألم هو الألم ، والسعادة هى السعادة ، أيا كانت وأنى كانت ، حتى مثلما تكون فيك .

فى كل أغنية من أغاني طيور الغابة

وفى كل صرخة من صرخات الجرحى

وفى كل أنة من أنات المحتضر

وهم يصارعون الموت فى قبضه الآسر

فى البحر المعجاج المتلاطم الأمواج الذى لا قراره ولا حد

حيث تعيش ملايين الأحياء المائية وتموت  
 وسط جموع الهمج والمتوحشين  
 فى المرض والألم  
 فى التهلل والأمل  
 فى كل مكان من أسفل سافلين الى أعلى عليين ... من الحضيض الى  
 أعلى منسوب للرفعة  
 من أخطّ الناس وأدناهم ... الى أنبلهم وأشرفهم  
 تمتلئ نفس الرغبة الجياشة الواعية بالحياة  
 التى تتعدد صورها وصنوفها ومظاهرها بقدر  
 ما فى العالم من كائنات حية  
 وهى رغبة لا تنطفئ كالشمس  
 وحقيقية كالنبضات التى ينبض بها قلبك الآن ... قلبك الصغير الأنانى  
 ارفع الغشاوة عن عينيك والحجب الصفيقة عن بصرك وبصيرتك وعين  
 هذه الحياة  
 ثم حول وجهك وانسها بقدر ما تستطيع  
 ولكن اذا كنت قد علمت وعرفت فقد بدأت تدرك واجبك وتعرفه \*  
 هذه الرؤية العلوية للمعنى الباطنى فيما لم ندركه — حتى اللحظة  
 التى رفعنا فيها الغشاوة الا بالطريقة الخارجية الميتة الجامدة فحسب —  
 كثيرا ما تباغت الشخص فجأة وعندما تفاجئه تكون نقطة تحول فى تاريخ  
 حياته .

\* The Religious Aspect of Philosophy, pp. 157-162 (abridged).

فكما يقول امرسون Emerson :

« يوجد عمق فى تلك اللحظات — يجبرنا على أن ننسب اليها حقيقة أكثر مما ننسبه الى كل الخبرات الأخرى . ان شهوة الحب تهز المرء كالانفجار .

وقد يوقظ تصرف ما ، أو حادث معين ، تويخ الضمير فى آخر أيامه ، بعد أن ظل معلقا غائما كالسحاب فى طوايا نفسه .

هذا الاحساس الغامض ( الصوفى ) للمعنى الخفى يبدأ فىنا غالبا من تفاعلنا مع الأشياء الطبيعية غير الحية .

ولقد اقتبست لكم فقرة من أوبرمان Obermann — وهى قصة فرنسية كانت ذائعة الصيت فى أيامها ..

« باريس فى ٧ من مارس . — كان الظلام مخيما ، والجو باردا ، وكنت أحس بالانقباض . وكنت أسير على غير هدى وبلا هدف ، اذ لم يكن عندى أى شىء آخر أعمله . ومررت ببعض أزهار برزت نهودها فوق حائط . كان هناك النرجس فى أوج ازهاره . انه أقوى تعبير عن الرغبة ، فقد كان أول شذا يعطر الوجود فى السنة . شعرت بكل السعادة التى قدر للانسان أن تغمره .

هذا النغم الصامت الذى تتناجى به الأرواح — هذا الطيف للعالم المثالى — اثبت فى كاملا .

لم يسبق لى من قبل أن شعرت أبدا بشىء يفوق هذا الشعور عظمة وتلقائية .

لم أدر أى شكل أو شبه أو سر فى العلاقة جعلنى أرى فى هذه الزهرة

جمالا لا حد له . ولن أحبس في مفهوم أو ادراك هذه القوة ... هذا الكبر  
الذى لا يقاس ولا شيء يقدر على التعبير عنه .

هذا الشكل الذى لا يستطيع أى شيء أن يحتويه ، هذا المثل الأعلى  
لعالم أفضل الذى يحس به المرء من صميم صميمه والذى يبدو كما لو أن  
الطبيعة نفسها لم تصنعه ، أو تصغه ، أو تشكله \* .

ان الشاعر وردزورث Wordsworth والشاعر شيلي Shelley  
زاخران — أيضا — بهذا الاحساس العميق بالمعنى اللانهائى فى  
الطبيعة . لقد كان هذا الاحساس عند وردزورث — معنى خلقيا صارما —  
« انشراحا مستوحشا » .

To every natural form rock, fruit or flower,  
Even the loose stones that cover the highway  
I gave a moral life : I saw them feel  
Or linked them with some feeling : the great mass  
Lay bedded in some quickening soul, and all  
That I beheld respired with inward meaning.

لكل شكل وخلقة طبيعية — الصخر والفاكهة والزهر

حتى الأحجار التى تغطى الطريق

وهبت لكل منها حياة خلقية

لقد رأيتها تشعر أو قررتها بشعور ما

هذه الكتلة الهائلة الراقدة فى روح نابضة

وكل ما شهدت كان يتنفس بمعنى باطنى

« الأخبار الصادقة الحقيقية للأشياء الخفية » \* .

أما أهمية هذا الوجود الخفى للطبيعة الذى خلب لب وردزورث ومشى  
يسمى فى غمرة نوره يجوب الوديان أياما متتالية — فان الشاعر لم يستطع  
أن يفسره منطقيا فى مفاهيم محددة ومدركات محدودة .

• De S'enancour: Obermann; Lettre xxx.

• The Prelude; Book III.

.ولكن القارئ الذى أحس بنفسه هذه اللحظات الواضحة الشبيهة  
بما أحس به وردزورث ، فان الأشعار التى يقر فيها الشاعر بحقيقتها بكل  
بساطة ، تحمل له سندا قويا يثلج صدره :

« ما أبهى شروق الصباح فى موكبه المتأبّخ الخالد .  
مجيد وجليل مجدا وجلالا لم أشهدهما أبدا من قبل  
ومن أمامه يسجد له البحر ضاحكا من بعيد  
وقد اصطبغت بلون الحنطة وسبحت فى الضوء الباهى الآسر  
ومن حوله الجبال الصم الشم تلمع كالسحب  
وفى المروج الخضراء والأراضى المنخفضة  
البيثقت كل عذوبة وحلاوة فجر جديد  
زاخر بالندى والبخار وأهازيج الطيور  
نابض بالعمال فى طريقهم الى الحقول  
آه يا صاحبي — هل هناك ضرورة لأن أقول  
ان قلبى قد امتلأ وفاض  
لم آخذ على نفسى عهدا ولا موثيق  
وانما جاءتنى المهود والموئيق  
وثاقا خفيا لا أعرف كنهه  
يلزمنى بأن أكون روحا تكرس هذه القدامة  
والا فقد أثمت اثما عظيما  
ومضيت الى غايتى فى نعيم حلو طهور شكور  
ما زال يضىء نفسى وينير لها السبيل » \* .

وعندما مضى وردزورث الى غايته وقد امتلأت نفسه بهذا الفيض الزاخر من البهجة الباطنية — مستجيبا للحياة الخفية للطبيعة من حوله — فلا بد أن جيرانه الريفين وقد شغلتهم شئونهم واحتوشتهم آفاقهم الضيقة من محصول وخراف وسياج ظنوا بعقله الظنون ووجدوا فيه شخصا عديم الأهمية . ومن المؤكد أن أحدا منهم لم يحاول أن يستوضح ما كان يدور في باطنه أو يستجلي كنه قيمة شعوره واحساسه .

ومع ذلك فإن هذه الحياة الباطنية حملت عبء معان واهتمامات غدت وما زالت تغذى حتى اليوم أرواح الآخرين وتملؤهم بالبهجة الباطنية .

لقد كتب رتشارد جيفريز Richard Jefferies كتابا رائعا أودعه تاريخ حياته بعنوان « قصة قلبي » The Story of my Heart تحدث فيها في صفحات كثيرة عن النشوة التي زخرت بها نفسه في شبابه من احساسه بحياة الطبيعة .

وهذا ما قاله وهو واقف فوق قمة أحد التلال :

« كنت وحيدا تماما مع الشمس والأرض، وحينما كنت مستلقيا على العشب تحدثت في روحى مع الأرض والشمس والهواء والبحر المترامى الأطراف — هذا الشعور الجارف الذى غمرنى ورفعنى وهذا الرباط الوثيق بينى وبين الأرض والشمس والهواء والسماء والنجوم المختفية وراء الضوء — والمحيط — لا سبيل الى وصف احساسى العميق به أو تدييح شعورى الفياض وتسطيره .

لقد صليت معها كما لو كانت مفاتيح لمغاليق النفس

ان عظمة الشمس بضوءها الحارق

والأرض القوية — الأرض العزيزة

والسواء الدافئة  
والهواء النقي  
وتخينى للمحيط بجبروته  
ملأت نفسى جميعها بجمال لا سبيل الى التعبير عنه  
وبنشوة وبشفغ مذهل وبسمو يرفئنى  
ومع السمو أيضا رددت صلاتى  
هذه الصلاة — هذا الاتفعال الروحى — لم تكن صلاة لشيء وانما  
كانت نشوة .

لقد دفتت وجهى فى العشب ، وبسطت جسمى ومددته ، وذابت نفسى  
فى الغيرة ، ثم أسرى بى بعيدا بعيدا ..  
فلو مر على عندئذ راع من الرعاة ، وتصادف أن رآنى مكبا على وجهى  
مددا على الكلا لظن أننى غارق فى سبات عميق أرتاح بضع دقائق  
اذ لم تكن حالتى تفصح خارجيا عما يعتمل فيها داخليا .  
من ذا الذى كان يتصور عندئذ دوامة النشوة أو الغمرة التى كانت  
تعتمل فى وأنا مستلق هنالك ؟ \*

لا شك أنها كانت ساعة ضائعة من عمرك اذا قيست بالمقاييس الدراجة  
الشائعة للقيمة التجارية !

ولكن — فى أى نوع آخر من القيمة يمكن لأى ساعة قيمة ثمينة أن  
تكون ثمينة قيمة بأى مقياس — ان لم تتكون من مشاعر وأحاسيس  
جياشة بالمعانى العظيمة ، وفواحة بالنشوة الروحية التى تتولد فى المرء بما  
تحتويه الساعة ؟

ولكن جلبة مشاغلنا العملية تميمنا وتميت قلوبنا حيال كل شئون الدنيا الأخرى ، لدرجة أنه يبدو كما لو كان من الضروري أن يصبح المرء عديم القيمة كإنسان عملي ، إذا قدر له أن يوسع أفقه ويعمق بصيرته في عالم الأشياء ذات القيم التي من هذا النوع الاستبطاني ، وأن يكون لديه ادراك عميق بمعنى الحياة على نطاق واسع موضوعي .

لا يستطيع ذلك الا الصوفي والحالم والتائه المعتر والخائب المفلس ، هؤلاء فقط هم الذين يقدرون على التمتع باحتراف هذا العمل ، وهو عمل سيغير المقاييس المألوفة للقيمة الانسانية في لمحة عين واضعا الجنون والجهل والحماسة والذهول فوق القوة وقبلها في الترتيب ، وهابطا — في دقيقة واحدة — بكل المزايا والاحرازات التي يفنى الرجل الاعتيادي عمره في بنائها وانشائها . انك تستطيع أن تكون نبيا على هذا المنسوب ، ولكنك لن تستطيع احراز نجاح دنيوي .

كثير منا يعدون والت هويتمان Walt Whitman مثلا — نبيا معاصرا .

فهو يلغى كل الفروق البشرية التي تفرق بين الناس ، ويضع حلولاً لكل مشكلات العرف السائد والتقاليد السارية ، ولا يجب أن يخفل بأي شيء ينسب الى الانسان سوى تلك الأشياء الأولية الشائعة بين بني البشر جميعا .

لذلك يصبح تائها خائبا ، من ذلك النوع الذي يعتلى سطوح الامنيوس والبواخر ويعتبر شخصا عديم القيمة غير منتج عمليا أو عقليا .  
أما أشعاره فليست سوى افرازات . مجرد نداءات أو دعوات بلا فعل أو فاعل . سلسلة متتابعة من حروف النداء على نطاق واسع .

لقد شعر هويتمان بالجماعة الإنسانية بالانشوة نفسها التى أحس بها وردزورث حيال الجبال ، أحس بها هويتمان كوجود طاغى المعنى والأهمية ، واستغراق العقل فيها ينبغى أن يكون كافيا وشغلا شاغلا ، يكفى ويستحق أن يملأ أيام رجل جاد .

وعندما اجتاز هويتمان معبر بروكلين فهذا ما شعر به :

مد" الفيضان من تحتى — ألاحظك وجها لوجه

سحب الغروب ! لم يبق على مغيب الشمس سوى نصف ساعة  
أراك أيضا وجها لوجه .

جموع الرجال والنساء مكتسين بملابسهم العادية  
ما أغرب منظركم فى عيني

إن الآلاف والآلاف التى تجتاز المعبر على ظهر المواخر  
عائدين الى بيوتهم — يثرون فى نفسى العجب والفرابة أكثر مما  
تصورون .

وأتم يا من ستعبرون من شاطيء لشاطيء  
آخرون سيدخلون بوابات الماخزة ويمبرون من شاطيء لشاطيء  
من هنا لسنين — أعز عندى وتشغلون بالى أكثر مما تظنون .

وآخرون سيقبون جريان مد الفيضان .  
وآخرون سيرون حركة سفن مانهاتن شمالا وغربا

وأعلى بروكلين الى الجنوب والشرق

وآخرون سيرون الجزر صغيرها وكبيرها

من الآن الى ما بعد خمسين سنة سيرها آخرون وهم يعبرون  
والشمس تميل الى مغربها .

من الآن الى ما بعد مائة أو ما بعد مئات السنين سيراهم آخرون

وسيتتعون بمنظر غروب الشمس وتدفق المد  
وانحسار الجزر  
فلا الزمان ولا المكان ، ولا البعد ، بقادرة على تغيير المنظر  
فكما تشعر عندما تنظر الى النهر والسماء ، فكذلك شعرت  
وكما أن أى واحد منكم فرد فى جماعة حية نابضة  
فكذلك كنت  
وكما أن منظر فرح النهر وانسيابه كاللجين ينعشكم  
فكذلك كان ينعشنى  
وكما تقفون متكئين على الحاجز — ومع ذلك تمضى  
سراعا مع سرعة التيار  
فكذلك وقفت ومضت سراعا ...  
وكما تشاهد ساريات السفن التى لا يحصيها عد  
ومداخن المواخر الغليظة  
فكذلك شاهدها  
لقد عبرت النهر مرات كثيرة .... كثيرة  
وقد مالت الشمس الى مغربها  
لقد راقبت طيور البحر على مدار العام  
رأيتها تسبح فى الهواء ثم تستقر على علو لا يطرف لها جناح وانما تهتز  
أجسامها  
ورأيت كيف ينير الوميض الأصفر أجزاء من جسمها  
تاركا بقية الأجزاء فى ظلال ثقيلة  
رأيت الدوائر البطيئة تدور كالعجلات  
وهى تنحدر صوب الجنوب رويدا رويدا

رأيت الأشرعة البيضاء للسفن ذات الساريتين  
 وللسفن ذات السارية الواحدة  
 ورأيت القوارب والسفن راسيات  
 والبحارة وهم يعملون فى جهاز السفينة  
 أو يصعدون الساريات  
 رأيت الأمواج وقد انعكس عليها الشفق  
 رأيت المغارف ورأيت القنابر وهى تمرح  
 وكلما بمدت الماخرة .... ازداد الظلام شيئاً فشيئاً  
 ان الحيطان الداكنة للمتاجر قرب الموانى  
 على الشواطئ القريبة  
 والسنة النيران وهى تندلع من القمائن  
 لتدخل فى جوف الليل  
 وقد ألتق لألاءها من السواد على شقوق الطرق .

هذه كلها — وكل ما عداها — كانت هى الأشياء نفسها لى كما هى

لكم \* .

وهكذا يمضى الشاعر فى بقية قصيدته الجميلة القدسية التكهنية .  
 واذا أردت أن ترى ما اعتبره هذا الأسيب الجواب أعظم وسيلة تجدر  
 به ليفيد من فرص الوجود ونعمه السابقة فاقراً المجلد اللذيذ السائع الذى  
 يحوى مراسلاته لسائق هيارة شاب اتخذه صديقاً :

نيويورك فى التاسع من أكتوبر سنة ١٨٦٨

عزيزى بيت 'Pete'

« ان الجو رائع هنا فى الصباح زاهر بالروتق والبرودة . لقد غادرت

مسكنى فى الصباح الباكر لأتمشى قليلا على شاطئ النهر الذى لا يبعد عن مسكنى الا بميدانين .

أسمح لى أن أخبرك عن حياتى ولو لمجرد ملء هذه الصفحات ؟ اننى فى العادة أقضى فترة الصباح الى الظهر فى غرفتى أكتب ، ثم أخذ حماما ، ثم أخرج حوالى الساعة الثانية عشرة أتسكع فى أى مكان أو أزور صديقا ، أو أذهب الى قلب المدينة لبعض شأنى . وأحيانا اذا كان الجو لطيفا أركب مع صديق لى فى سيارته ونجوب برودواى من الشارع الثالث والعشرين الى بولنج جرين Bowling Green ثلاثة أميال ذهابا وثلاثة أميال أخرى ايابا .

( وكل يوم أجده زاخرا بدواعى العمل ، وكل ساعة أجد فيها ما يشغنى ) — انك تعلم أنها متعة لا تنفد ، ودراسة وترفيه أن تتركب ادة ساعتين بعد الظهر على اخدى مركبات برودواى على هذا النحو .

انك ترى كل شيء أثناء مرورك — منظر حى نابض لا ينتهى — متاجر ، ومبان فاخرة ، وواجهات ، ونوافذ عظيمة . وعلى جانبى الطريق أطورة واسعة تخطر عليها جماعات من النساء وقد لبسن أبهى الملابس وأغلاها — ولا ينقطع مرورهن .

هذا الجمهور يختلف تماما فهو أرقى وأروع فى شكله وموضوعه من أى جمهور آخر يمكن رؤيته فى أى مكان آخر ، فى الحقيقة تيار — بلغ حد الكمال — من الناس — والرجال أيضا يرتدون ملابس فى منتهى الرشاقة والوجاهة — وعدد كبير من الأجانب .

أما فى الشوارع فانك ترى سىلا لا ينقطع من العربات والمركبات وعجلات النقل والمركبات الخاصة بالفنادق والمركبات الخصوصية . وفى

الحقيقة كل أنواع المركبات والعجلات ، وكثير من فرق الدرجة الأولى ميلا بعد ميل .

إن روعة هذا الشارع العظيم بما فيه من مبان شاهقة رائمة نبيلة ، كثير منها مبني من الرخام الأبيض ، الى جانب ما يزخر به هذا الشارع من حركة ومرح على الجانبين ....

كل هذا — ينبنى ألا يثير اندهاشك اذا علمت الى أى حد يفتنى ويغلب لبي عندما أنعم برؤيته فى يوم جميل شائق رائق خصوصا وأنت تعلم مبلغ شففى بالتسكع . ان المتسكع من أمثالى يجد لذة مضاعفة فى رؤية الحياة الصاخبة تنبض بالحياة من حوله وتبدى مفاتها وتبرز جاذبيتها لمتعته فى الوقت الذى يمضى فيه على سجيته ولا يفعل شيئا أكثر من أن ينظر ويلاحظ ويراقب \* .

حقا انها طريقة لا جدوى منها ولا تقع فى تمضية الوقت — هذا ما يقوله البعض منكم — وهى لا تليق برجل راشد قد وخط الشيب رأسه .  
ولكن — من أعمق وجهات النظر وأبعدها غورا — من الذى يعرف من الحقيقة أكثر؟ ومن الذى يعرف من الحقيقة أقل؟ أهو هويتمان فى أعلى مركبة المقعمة نفسه بالبهجة الباطنية التى يوحى اليه بها هذا المشهد الفريد؟ أم أتم الذين تمتلئ نفوسكم ازدراء لتفاهة ما تثيره فيه مهنته؟ .

ان المواطن العادى البروكلىنى أو النيويوركى الذى يعيش حياة محشوة ومنفعة ، بل ومكتظة بالترف أو الذى يشعر بالملل والتعب والقلق على شئونه الشخصية ، هذا المواطن العادى عندما يعبر النهر أو يجتاز برودواى راجلا أو راكبا — فان خياله « لا يحلق بعيدا فى ألوان الغروب » — مثلما يفعل هويتمان — ولا هو بقادر على أن يدرك باطنيا الحقيقة التى لا جدال فيها

وهي أن هذا العالم لم يحو من قبل أبداً ، ولا في آي وقت قدرا أكبر من هذه القدسية الآسرة أو المعنى الخالد مما هو كامن فيما ينبسط أمام عينيه اللتين تمران عليها مر الغفلة والاغفال .

هنالك كانت الحياة . وهنالك على بعد خطوات منها يقوم الموت . هنالك كان الجمال الفريد الفذ الذي تجتليه العين ولا شيء سواه .

هنالك الكفاح الانساني الموصول ، والى جانبه ثمرات هذا الكفاح .

هنالك النص والموعظة — الحقيقي والمثالي — مندمجان في واحد ..

ولكن العين الكليّة العميئة لا تجد في كل ذلك الا خمودا وجمودا ومواتا ولا تشر حياله الا بالتقزز والسطحية والدارجية .

« صه . انه لمنظر مخزن يذكى لهيب الأسي ، ويثير الشجون » . هذا ما قاله كارليل Carlyle وهو يمشى ذات ليلة مع صديق له يشير بيده الى السماء لافتنا نظر كارليل الى روعتها الأخاذة .

وهذا التكرار ذاته لهذا المنظر للأجيال المتعاقبة جيلا وراء الآخر في تتابع موصول — هذا التكرار الخالد لنظام الكون الذي يملأ نفس هويتان بالرضا الصوفي — ولا يعنى بالنسبة لشوبنهاور Schopenhauer المعبأ بالمخدر الانفعالي وبالشعور « بالفراغ الباطني المخيف » الذي يرى منه كل شيء — هذا التكرار الخالد — عند أمثال شوبنهاور العنصر الرئيسي للملل والسأم الذي يشيعه .

« ما هي الحياة على أوسع نطاقها ؟ » يتساءل شوبنهاور : « انها ليست سوى الخواء الأجوف المتكرر — الكلب الذي ينبسح — الذبابة التي تطن الى أبد الآبدين » .

يبد أن نوع النسيج الذى تتكون منه تلك التوافه الخاوية هو المادة التى تنسج منها كل متع الحياة ومعانيها ومباهجها التى كانت وما زالت وستظل قوام هذه الحياة .

فكونك تنتشى بتيقظ واتباه وشغف وصبر وارتضاء — مثل هويتمان — بمشهد الوجود الانسانى فى حد ذاته وحسب — هو إحدى السبل — بل أعظم السبل طرا — للاعتراف بشعور المرء بأهمية وقيمة الوجود ، تلك الأهمية التى لا يمكن سبر غورها وتلك القيمة التى لا قرار لها .

ولكن كيف يمكن للمرء أن يستشعر احساسا بالقيمة الحيوية لخبرة ما — اذا لم يمارس هذه الخبرة بادية ذى بدء ؟

لا يوجد صك تستطيع أن تضمن به ذلك ، ولا أثر يتعين عليك اقتفاؤه . فلكونها سرا وتصوفا علويا ، فان الاحساس بها غالبا ما يأتىك بطرق غامضة صوفية لا تتوقمها .

انها أحيانا تنبجس من القبرفضسه الذى خيل لنا أننا دفنا فيه سعادتنا .

ان بنفوتو سيلينى Benvenuto cellini بمد حياة قضاها كلها فى الهواء الطلق تحت ضوء الشمس — حياة كلها مغامرات ومتع فنية — وجد نفسه فجأة مرميا حبيسا فى ززانة فى قصر سان انجلو san Angelo ، وكان المكان فظيحا بشعا يزخر بالفيران والرطوبة والعفن ، ثم تكسر ساقه وتساقط أسنانه من داء الأسقربوط ، ولكن أفكاره تتجه الى الله — على نحو لم يسبق له من قبل — ثم يلوذ بالانجيل فيقرأه خلال الساعة الأولى من كل أربع وعشرين ساعة حينما ينفذ شعاع ضئيل الى محبسه يحل معه بصيصا من النور . واذا بالملائكة يؤنسون وحشته . هكذا وجدهم فى الرؤى الدينية التى بددت وحشته ، ثم يترنم بالمزامير ويرتلها ترتيلا ويؤلف

ترانيم من عنده . وفي اليوم الأخير من يوليو — وهو يفكر في مناسبة هذا اليوم المجيد — وفي أعياد الذكرى التي تقام فيه في روما في صباح اليوم يقول سيليني في نفسه : « لقد احتفلت بذكري هذا اليوم طوال الأعوام الماضية بأباطيل وأضاليل هذا العالم . أما من هيذا العام فصاعدا فسأحتفل فيه بجلال الله وقديسيته » وعندئذ قال لنفسه : « كم أنا أسعد حالا لحياتي الراهنة ما كنت عليه بكل هذه الذكريات الماضية » .

يبد أن الفاهم العظيم لكل تلك الأحاسيس من المد والجزر هو تولستوي Tolstoi ، فقصصه كلها تنبض بها وتفيض .

وفي قصته « الحرب والسلام » — نجد أن البطل بيتر Peter وهو المفروض أنه أغنى رجل في الامبراطورية الروسية يؤخذ أسيرا في أثناء الغزو الفرنسي وقد نهكه الانسحاب الطويل أثناء التقهقر .

والبرد والحشرات الخبيثة والجوع وكل صنوف اليأس والشقاء أناخت عليه بكلكلها ، ولكن النتيجة هي انشاع الغشاوة عن عينيه . لقد عرف الميزان الحقيقي لقيم الحياة .

« هنا فقط ولأول مرة استشعر (لأنه كان محروما منها) سعادة وامتعة الأكل عندما يكون جائعا ، والارتواء عندما يكون عطشان ، والنوم عندما يكون راغبا في النوم ، والكلام عندما يحس برغبة في تبادل بضع كلمات ..

وفيما بعد في حياته كان يحس بمتعة عظيمة عندما يمود بذاكرته الى ذلك الشهر من الأسر ولم يتخل قط عن الكلام بحماسة وشغف عن قوة المشاعر والأحاسيس التي لا تمحي وبخاصة تلك الطمأنينة والهدوء والسكينة الخلقية التي شاعت في نفسه ابان تلك الفترة .

وفى فجر اليوم التالى لأسره رأى ( أنا أوجز هنا وصف تولستوى )  
الجبال بنحدراتها تختفى فى ظلال الضباب الضارب الى الشيب وعندما  
شعر بالنسيم البارد يحتضنه عندما رأى الضوء يبدد الأبخرة والشمس  
تشرق بجلالها وراء السحب والقباب والصلبان والندى والأبعاد والنهر  
يتلألأ سابحا فى الأشعة المرحه — عندما رأى كل ذلك فاض قلبه بالانفعال  
والعاطفة ، وظلت هذه العاطفة تلازمه باستمرار ثم تضاعفت مئات المرات  
كلما ازدادت خطوبه ، وأطبقت عليه المشكلات وأخذت بخناقه المصاعب ..  
لقد تعلم أن السعادة فى مقدور الانسان ، وأن تلك السعادة موجودة فى  
الانسان ذاته — فى اشباع الحاجات اليومية لوجوده — وان الشقاء هو  
المصير والغائمة القاضية ... ليست لحاجتنا ، ولكن للظفرة والوفرة والبطر ..  
وعندما خيم السكون على المعتقل وخفت النيران وتحولت الى رماد  
شيئا فشيئا ، كان القمر قد اكتمل فى أوج ارتفاعه ، كانت الغابات والمزارع  
راقدة فى حزن الطبيعة وقد كساها ضوء القمر وغمرها بنوره ، وسبح  
المنظر الى الأفق اللانهائى .

ثم رمى بوتره الى القبة الزرقاء وقد تلالأت بالنجوم ثم فكر فى  
نفسه قائلا : « كل هذا الى — كل هذا فى — كل هذا هو أنا — وأنا هو  
ذلك الذى ظنوا أنهم أخذوه أسيرا وأنا هو ذلك الذى حبسوه فى كوخ » .  
ثم ابتسم راضيا واتجه الى حيث يرقد رفاقه ونام الى جوارهم .  
ان المناسبة والخبرة اذن — ليستا شيئا . والأمر كله متوقف على  
قدرة الروح على أن تنتشى وأن تندغم تيارات الحياة فيها وتندمج وتذوب  
فيما وهبته .

« بينما كنت أعبر منقع وحل مليئا بالثلوج فى الغسق تحت الغمام ، دون  
أن يكون عندى أى تفكير فى حظ حسن بنوع خاص ، تمتعت بنشوة

بلغت حد الكمال .. أنا سعيد الى حافة الخوف « \* .  
ان الحياة تستحق العيش دائما .. اذا توافرت لدى المرء هذه الأحاسيس  
المتجاوبة .

ولكن نحن الطبقة ذات التعليم الراقى ( هكذا نسمى ) قد بعدنا —  
بعدنا جدا عن الطبيعة .

لقد تدربنا على البحث عن النادر والغريب واختيار النفيس الذى لا مثيل  
له ، وتجاهل وانغفال العادى الشائع المؤلف .

اننا محشونون بالمفاهيم المجردة ، ولساننا ضرب ينطلق بالكلام الأجوف  
والألفاظ الكثيرة المترادفة . ومن طول ممارستنا لهذه القدرات الرفيعة  
والوظائف العالية — تجف فينا وتتيسر المصادر الخاصة بالمتع المرتبطة  
بقدراتنا العادية ووظائفنا الطبيعية . وتسدل الغشاوة على أعيننا والحجب  
الصليقة على بصائرنا فلا ترى العناصر الأولية للحياة ولا نبصر ما فيها  
من خير وبهجة وامتاع .

إن العلاج — فى هذه الظروف والأحوال — هو النزول الى مستوى  
أكثر عمقا والهبوط الى منسوب أكثر بدائية . ان الكوارث كثيرا ما تكشف  
عن خير الحياة لكثير من جهاذة العلم المتشائمين — فاذا ما سجنوا  
أو انكسرت بهم السفينة فى عرض البحر أو جندوا اجباريا ، فقد تفعل تلك  
الخبرات فى هوسهم فعل السحر وتكشف لهم الى الأبد عما فى الحياة  
من خير لم يدركوه من قبل .

إن الحياة فى الهواء الطلق وعلى الأرض تجعل قسبة الميزان المائلة الى  
جانب واحد ترتفع ببطء الى خط المنسوب المستوى وتحدث موازنة بين  
الاحساسات الجارفة الجياشة فى نواح ، وبين بلادة الاحساس أو انعدامه

\* La Guerre et la Paix. Paris, 1864 Vol. iii; pp. 268; 275; 316;



في كتابه « أيام الكسل في باتاجونيا » Idle Days in Patagonia حيث يقول ذلك المؤلف الرائع البارع :

« أمضيت الشطر الأكبر من فصل الشتاء على بقعة فوق الريو نجرو Rio Negro التي تبعد عن البحر بحوالى سبعين أو ثمانين ميلا .

وكان من عادتي أن أخرج كل صباح متطيا حصاني متقلدا بندقتي يتبعني كلبى — ثم أبتعد عن الوادى وبمجرد أن أصعد فى السفح وأخوض فى الدغل أجد نفسى وحيدا كما لو كانت المسافة التى تفصل بينى وبين الوادى والبحر خمسمائة ميل ، بدلا من خمسة أميال .

لقد كان هذا القفر يبدو موحشا ومنمزلا وبعيدا وممتدا الى اللانهاية ، قفرا لم تطأه قدم الانسان ، قفرا يندر فيه وجود الحيوانات المتوحشة ، ولذلك لم تمهد لها طريقا خلال الحسك ، ولقد عدت الى هذا القفر والعزلة مرة ، ومرة ، ومرة ، وكنت أذهب اليه فى الصباح كما لو كنت ذاهبا لحضور حفل ولم أكن أغادره الا عندما يقرصنى الجوع أو العطش أو تميل الشمس الى مغربها فتضطرني الى العودة — ومع ذلك فلم يكن لى هدف أو غرض أتبعه من الذهاب — لم يكن عندى دافع أستطيع أن أصوغه فى كلام ، فعلى الرغم من أننى كنت أحمل بندقية فانه لم يكن هناك شىء أصطاده . فالصيد كله كان فى جوف الوادى .

وأحيانا كنت أمضى يوما كاملا دون أن تقع عيني على أى حيوان من الحيوانات الثديية — وربما لا أكثر من نصف «دسته» من الطيور — وكان الجو عندئذ معتما ، والسحب الداكنة تغطى السماء والرييح باردة لدرجة أن البرودة كانت تخدر يدي القابضة على اللجام .

ولم أكن أطلق لجوادى العنان ، وانا أمضى على مهل بخطوة وئيدة لم يكن فى مقدورى احتمالها فى ظروف أخرى — وكنت أظل راكبا على هذا النحو لمدة ساعات طويلة بلا توقف .

وعندما كنت أصل الى سفح تل فكنت أظل راكبا على الجواد وأصعده على مهل وببطء حتى أصل الى قمته ، ثم أقف هنالك لأملأ عيني من هذا المشهد الرائع من فوق القمة .

وكان المنظر يمتد على كلا الجانبين فى تعرجات ومنحنيات كبيرة — متوحشة غير منتظمة — ما أروع لونها الأشهب — ولم تكن تبدو لى أكثر قربا من الأفق البعيد المغلف بالضباب والاعفرار حيث تبدو التلول معتمة وخط سلسلة الجبال لا يكاد يرى بسبب بعد المسافة .

فإذا ما نزلت من علياء القمة وهبطت الى السفح استأنفت تجوالى ثانية بلا هدف ، ثم أعتلى مرتفعات أخرى لأحلق فى نفس المنظر من قطعة أخرى ، وهكذا لساعات طويلة .

وعند الظهر أترجل عن جوادى ثم أجلس أو أستلقى لمدة ساعة أو أكثر متوسدا معطى .

وذات يوم وأنا أتجول استكشفت حرجة ( غابة صغيرة ) تتكون من عشرين أو ثلاثين شجرة تنمو على أبعاد متناسبة فيما بينها ، ويظهر أنها كانت مأوى لقطيع من الغزلان أو الحيوانات المتوحشة ، وكانت هذه الحرجة قائمة فوق تل يختلف فى شكله عن بقية التلول الأخرى فى المنطقة المجاورة — وبعد فترة — قررت أن أستعملها كاستراحة كل يوم عند الظهر . ولم أسأل نفسى : لماذا اخترت هذه البقعة بالذات ؟ ولماذا كنت أنتكب طريقى أحيانا لأجلس هناك بدلا من أن أنفياً ظلال شجرة من ملايين الشجرات أو الشجيرات الأخرى المبتوثة على أى تل آخر من التلول الأخرى ؟

لم أفكر في ذلك أبدا ، وانما تصرفت لاشعوريا . ثم بدا لى فيما بعد — فقط — أنتى بعد أن استرحت هناك مرة أنتى كنت أرغب كل مرة في أن أستريح هناك ثانيا ، فكانت الرغبة تأتيني مرتبطة بصورة هذا الدغل المعين من الأشجار بالذات بسيقانه اللامعة وبمرقده النظيف من الرمل تحت الأشجار ، وبعد مدة قصيرة كونت عادة العودة اليه — كما لو كنت حيوانا — لكى أستريح في نفس البقعة ، فما أحلى الرجوع اليه !

« وربما كان خطأ منى أن أقول اننى أجلس هناك وأستريح ، فلم أكن متعبا أبدا ، ومع ذلك فبدون أن أكون متعبا — كانت تلك الفترة — تلك الوقفة اليومية ظهر كل يوم — التى كنت أجلس خلالها لمدة ساعة دون حركة — طيبت خاطرى وأرضتني بشكل غريب .

« فطوال اليوم كنت أمتع بهذا الهدوء ، بلا أى صوت يزعجنى حتى حفيف الشجر لم أكن أسمعه .

وذات يوم — بينما كنت أنصت للهدوء — بدا لى أن أتساءل عن نتيجة أو أثر ما يمكن أن يحدث اذا رفعت عقيرتى وصرخت بأعلى صوتى . وقد بدا هذا الاقتراح حينئذ فظيما جعلنى أرتجف من الخوف .

ولكن أثناء هذه الأيام من العزلة والانفراد كان من النادر جدا أن تدور بخلدى فكرة ، ففى الحالة العقلية التى كنت فيها أصبح التفكير مستحيلا ، ذلك أن حالتى كانت حالة توقف وترقب ، ومع ذلك فلم أكن أتوقع حدوث أية مفاجأة أو ملاقات أية مغامرة وشغرت بخلوى من أى توجس أو خوف ، كما أشعر الآن تماما وأنا جالس فى غرفتى فى لندن .

فالحالة كانت تبدو لى مألوفة أكثر مما كانت غريبة ومصحوبة بشعور قوى من الابتهاج والتسامخ . ولم أعرف أن شيئا وقف بينى وبين عقلى

حتى عدت الى سابق نفسى — الى التفكير — والى وجودى التساهى الجامد القديم ( ثانية ) . ولقد عدت ثانية بلا شك — وهذه الحالة من الترقب الشديد ، أو على الأصح الخفة واليقظة والنشاط بما يصاحبها من توقف القوى الفكرية العليا تمثل الحالة العقلية للمتوحش الهمجى القح ، فهو قليلا ما يفكر ، وقليلا ما يتعقل ، وله من ادراكه الحسى المجرى خير دليل وموجه .

انه فى حالة انسجام تام وتناغم وتوافق مع الطبيعة ، ويكاد يكون على المسلوب العقلى للحيوانات المتوحشة التى يفرسها والتى هى بدورها تفرسه أحيانا \* .

للمشاهد الخارجى تشكل مثل تلك الساعات التى كتب عنها هرسون مجرد قصة خواء وفراغ لا يحدث فيه شىء ، ولا يستفاد منه شىء ، ولا يوجد فيه شىء يوصف . انها مجرد مد زمنى كله خواء ولا معنى له . أما ذلك الذى يشعر بسرها الدفين الباطنى فانها تحمل له أهمية ومعانى تشهد على نفسها بنفسها دون أن تبس بحرف .

انى أتحسر على الولد أو البنت أو الرجل أو المرأة الذى لم يفعل أبدا بسحر هذه الحياة الحسية السرية الغريبة بما فيها من انعدام المعقولة اذا أحبت أن تسميها كذلك . ولكن بما فيها من يقظة وخفة ، وسعادة وغبطة وهناءة عليا مطلقة .

ان أيام البطالة فى الحياة — أو « إجازات » الحياة — هى أعظم أجزاء الحياة حيوية وأهمية ، لأنها — أو على الأقل لأنها ينبغى أن تكون — زاخرة بهذا النوع بالذات من اللامبالاة الساحرة التى تأخذ بسجام القلوب .

والآن ما نتيجة وحصيلة كل هذه الاعتبارات والاقتباسات ؟

انها سلبية في معنى ولكنها ايجابية في معنى آخر .

انها تنهانا عن المضي في القاء التهم جزافا ضد كل أشكال الوجود التي

تختلف عن أشكالنا ووصفها بأنها عديمة المعنى .

وهي في الوقت نفسها تأمرنا بأن نتحمل وتسامح مع ونحترم وتعمق

أولئك الذين نراهم سعداء ومشغوفين في حياتهم على طريقتهم الخاصة دون

أن يؤذوا أحدا ، أيا كانت مصادر سعادتهم وشغفهم ، ومهما تكن غير

مفهومة لنا .

كفوا وارفعوا أيديكم . فلا الحقيقة برمتها ، ولا الخير كله ، ينكشفان

لأى ملاحظ بمفرده على الرغم من أن كل ملاحظ تكون عنده بصيرة

جزئية تفوق غيره بسبب الموقف الخاص ، أو بفضل الوضع الفريد القذ

الذي يكون فيه .

حتى السجون وغرف المرضى لها ألوان « كشفها » المعينة . انها كثيرا

ما ترفع الغشاوة عن أعين أصحابها .

انه يكفي أن نطلب من كل منا أن يخلص للفرص التي تواتيه ، وأن

يفيد الى أقصى حد من النعم التي تسبغ عليه دون أن يفترض في نفسه

القدرة على تنظيم بقية الكون الشاسع .

## الفصل الثالث

### ما الذي يجعل لحياة ما... معنى ؟

في حديثي السابق « عن ظاهرة عمى معين » حاولت أن أجعلكم تشعرون الى أى حد تختنق الحياة وتخترم بالقيم وبالمعاني التي نخفق في إدراكها بسبب وجهة نظرنا الخارجية والعديمة الحس .

ان المعاني موجودة هناك للغير ...

ولكنها ليست موجودة هناك لنا .

يبد أن فهم هذه الحقيقة يقتضى أكثر من مجرد اهتمام أو تأمل مبعثه حب الاستطلاع .

ذلك لأن قيمتها وأهميتها العملية في منتهى الخطورة . ليتنى أستطيع أن أقنعكم بها مثلما أشعر بها نفسى .

انها ركيزة كل ما فينا من تسامح .. اجتماعى ، ودينى ، وسياسى .

ونسيانها أو إغفالها يكمن وراء كل خطأ سفيه ، ويرتكز عليه كل

سفك للدماء يقترفه الحكام في حق الشعوب الخاضعة لحكمهم .

إن أول شيء تتعلمه في محادثة الناس هو عدم التدخل في طرقهم

الخاصة الممينة التي ينشدون بها السعادة ، بشرط ألا تتدخل هذه الطرق

بالقوة في طرقنا نحن الخاصة بنا .

لا يوجد انسان عنده بصيرة بكل المثل العليا ، ولا يبنى لأى انسان

أن يجعل من نفسه حكما عليها لأول وهلة .

ان اصطناع الوثوقية والعقيدية واليقينية في أمرها وافترض الحتمية المجمدة في اعتبار كل فريق حيال الفريق الآخر ، هي مصدر معظم البلاء الانساني وأساس كل المظالم وصنوف القسوة والعذاب التي تقاسيها الانسانية . وهذه الصفة أو الخاصية في الخلق الانساني هي الخاصية التي تسيل دموع الملائكة .

ان كل محب . Jack ( جاك ) يرى في محبوبته اللذ ( چل ) مفاتن وألوانا من الكمال — لا نشعر بسحرها نحن الذين ننظر اليها من الخارج نظرة تبرد لا تحرك فينا ساكنا ، وانما تقابلها ببرود وجمود كجمود الصخر .  
ومن ذا الذي يملك زمام رؤية الحقيقة المطلقة هو أم نحن ؟  
من عنده بصيرة حيوية أكثر بطبيعة وجود المحبوبة كحقيقة ؟  
هل فاض به الوجد باعتبارها في هذه المسألة في حالة هيام وهوس ، واذن فهو مبالغ ؟

أم أن العيب فينا والقصور فينا باعتبارنا ضحايا تخدير معتل بالقياس الى أهمية المحبوبة ( چل ) الساحرة وفتنتها الآسرة ؟

بالتأكيد العيب فينا نحن — بالتأكيد تنكشف الحقائق الأكثر عمقا للمحب لچاك — بالتأكيد أن نبضات قلب المحبوبة ( چل ) وخفقانه من بين أروع عجائب الخلق وتستحق هذا الاهتمام الحنون — وانه لعار علينا أننا لا نستطيع أن نحس باحساس المحب چاك .

ذلك أن المحب ( چاك ) يدرك المحبوبة ( چل ) ادراكا ملموسا محسوسا ونحن لا نفعل ذلك .

وهو ينافح ويكافح في اتجاه اتحاد بحياتها الباطنية مقدسا مشاعرها ، مدركا لرغباتها ، ومتوقعا لها بحساسية فائقة ، فاهما لحدودها بأقصى

ما فيه من رجولة . ومع ذلك فبطرقة غير كافية ولا وافية أيضا ، لأنه أيضا مصاب ببعض العمى ، حتى هنا ! فبيننا نحن كالكتل الجامدة الميتة ، لا نحاول ولا نبحث فى هذه الأمور وتقصيها ، وانما تقتنع بأن ذلك الجزء من الحقيقة الخالدة المسماة ( چل ) ينبغي أن يكون بالنسبة لينا كأنه غير موجود . وچل — التى تعرف حياتها الباطنية — تعرف أن طريقة چاك فى الاهتمام بها الى هذا الحد هى الطريقة الصحيحة ، والطريقة الجدية ، وهى تستجيب للحقيقة فيه بأن تهتم به حقا وجديا أيضا .

حبذا لو لم يلفهما العمى القديم بسحبه بعد ذلك ثانيا . أين يكون كل واحد منا الآن ، اذا لم يكن هناك شخص راغب فى معرفتنا على حقيقتنا ومستعد لأن يوفى لنا الدين لقاء بصيرتنا بأن يعترف بنا كما اعترفنا به — واحدة بواحدة .. وفاء بوفاء .

ينبغي لنا جميعا أن يدرك بعضنا بعضا على هذا النحو الواسع الهام المؤثر فى العواطف .

فاذا قلت ان هذا سخي ، وانه يستحيل علينا أن نجب كل واحد دفعة واحدة ، فساكتنى بأن أشير اليكم بأنه فى حقيقة الأمر يوجد أشخاص مميّنون مزودون بقدرة هائلة على الصداقة وعلى الابتهاج بحياة الآخرين ، وان مثل هؤلاء الأشخاص يعرفون من الحقيقة أكثر مما لو لم تكن قلوبهم كبيرة واسعة .

ان اثم حب چاك وچل وأمثالهما ليس فى شدته ، ولكن فيما فيه من ألوان المنع والنفى والكف والغيرة والحقد .

دع تلك الصفات جانبا واطرحها وراءك ظهريا وسترى أن المثل الأعلى الذى أعرضه أمامكم الآن — مها كان غير عملى اليوم — لا يحوى فى طياته أى سخافة ذاتية أصيلة .

إننا بلا جدال نزرع تحت أعباء غشاوة من العمى السلفى — ترفع  
عن أعيننا — هنا أو هناك في نوبات متقطعة تتكشف لنا فيها الحقيقة .

ولا جدوى من أن نأمل في أن تتغير هذه الحالة تغيرا كبيرا .

فأسرارنا الباطنية الدفينة ستظل في معظم أجزائها مغلقة دون الآخرين ؛  
لأن الكائنات التي يتعين عليها أن تكون عملية بالضرورة لا بد وأن تكون  
بالضرورة قصيرة النظر !

ولكن اذا لم نستطع أن نكتسب بصيرة ايجابية فيما بيننا أفلا نستطيع  
على الأقل أن نفيد من حاسة العمى المتوافرة لدينا لتكون أكثر حذرا في  
ارتياح الأماكن المظلمة ؟ أفلا نستطيع أن تتلافى بعض تلك الأنواع السلفية  
من التعصب والقسوة والتناقض الايجابي مع الحقيقة ؟

في الجزء الباقي من هذه المحاضرات أدعوكم وأناشدكم أن تبحثوا معي  
عن مبدأ يجعل تسامحا وتقبلا للآخرين أقل فوضى وتشويشا ، وكما بدأت  
محاضراتي الماضية بذكرى شخصية فأستحييكم المذر في أن أخوض بكم  
في حديث صغير عن نفسى .

في أحد فصول الصيف منذ بضع سنوات قضيت أسبوعا سعيدا في  
أراضى « المجمع » الشهيرة على شواطئ بحيرة شوتاكووا Chautauqua ،  
وفي اللحظة التي يطأ فيها المرء هذا الفناء المقدس يشعر المرء بنفسه في  
جو من « النجاح » .

فالتعفف والرزانة والمثابرة والجد والذكاء والتقوى والنظام والمثالية  
والازدهار والمرح تسود الجو وتشيع فيه . انها رحلة جديّة تتطلب جهدا  
ومثابرة وجدا على نطاق هائل .

هنا تجد مدينة من آلاف عديدة من السكان ذات موقع جميل فى الغابة جفت وزودت بكل الوسائل المشبعة لحاجات الانسان الدنيا ، ومعظم حاجاته العليا . هنا تجد كلية من الطراز الأول فى أوج فتوتها .

وتجد موسيقى رائعة ، وزمرة من المرمنين يبلغ عددها سبعمائة صوت فى أعظم مسرح فى العالم بنى فى الهواء الطلق . هنا تجد كل أنواع الألعاب والتمرينات الرياضية من التجديف الى السباحة ، الى ركوب الدرجات ، الى كرة القدم وكرة السلة ، الى سائر الألعاب الأخرى الصناعية داخل « الجيمينيزيم » . هنا مدارس رياض أطفال ، ومدارس ثانوية نموذجية . هنا تقام صلوات عامة ومواعظ دينية ومنتديات خاصة للمذاهب الدينية المختلفة :

هنا تجد نافورات للمياه الغازية ( والآيس كريم ) تتدفق باستمرار ومحاضرات شعبية يومية يلقيها مشاهير المحاضرين .

هنا تجد أفضل الصحة وبلا مجهود .

هنا لا توجد أوبئة ، ولا فقر ، ولا مدمنو خمر ، ولا جريمة ، ولا شرطة . هنا تجد الثقافة والصلق ، والظرف واللفظ والمعروف ، ورخص الأسعار والمساواة . هنا تجد أطيب ثمرات ما كافح الانسان من أجله بالمرق والدم تحت اسم المدنية لقرون عديدة . هنا بالاختصار تجد مقدمة أو إرهاصة لما ينبغى أن يكون عليه المجتمع الانسانى اذا قدر له أن يمشى فى الضوء بلا آلام ، ولا عذاب ، ولا أركان مظلمة .

لقد دفعنى حب الاستطلاع لأن أذهب لأمضى هناك يوما فلبثت هناك أسبوعا كاملا مأخوذا ومسحورا بجلال ويسر كل شىء — هنا جنة الطبقة المتوسطة دون أن تقترب أى اثم أو تقدم قربانا من ضحية — أو تلتطخها بوصمة تسكب من أجلها دمعة .

ولكن العجب الذى يستنفد كل عجب أنتى بمجرد أن خرجت من هذه الجنة الوارفة الظلال الى عالم الظلمة والشرود ثانية ، ألفت قسى أقول على غير توقع ، وعلى الرغم منى :

« أف ... لقد تنفست الصعداء . اننى أشعر بالارتياح أن أغادر تلك الجنة . ما أشد لهفتى على الخروج الى عالم طبيعى أصيل ، حتى لو كان قد بلغ من السوء ما بلغته المذبحة الأمريكية لكى أستعيد توازنى مرة ثانية !

هذا النظام داخل « المجمع » — نظام ذلول أكثر مما يجب وثقافته من الدرجة الثانية . وهذا الصلاح والتقوى والخير — التى تشيع فى أرجاءه لا تشحذ همة ولا توحى بذكاء .

هذه المسرحية الانسانية — بدون شرير أو مخاض أو ألم — هذا المجتمع الذى بلغ من رقيه ورقته أن أصبحت الآيس كريم بالمياه الغازية هى أقصى منحة يقدمها للحيوان المتوحش الرابض فى اهاب الانسان .

هذه المدينة التى علت وخفت فى شمس البحيرة الفاترة ، هذه السلامة الفظيعة فى كل الأشياء .. لم أستطع أن أقيم معها باستمرار ، ولم أطق الوجود الى جوارها الى الأبد .

دعونى أغامر .. أكافح وأنافح وأسمى وأنطلق ثانية فى أرجاء العالم الفسيحة بكل ما فيه من آثام وآلام .

هنالك تجد الآفاق والأعماق والوهاد والمثل التى تهبط بالانسان الى أسفل سافلين — هنالك تبرق ومضات الهول والسرمدية ، بيد أنها أكثر رجاء وعونا آلاف المرات من ذلك المستوى الهامد الميت الذى جمع خلاصة كل اعتدال ووسط .

ذلك كان ما واجهتنى به نفسى عندما جمع بى خيالى العاصى بمجرد أن خرجت من تلك الجنة .

لقد وجدت هناك ماثلا أمامى — تحقيقا — على نطاق صغير ضيق طبعاً — لكل المثل العليا التى تحاول حضارتنا احرازها — الطمأنينة — الأمن — الدعة — الذكاء — الانسانية — النظام — ولكن ماذا كان رد الفعل حيالها ؟ — كان رد الفعل الفريزى حيالها رد فعل مضاد ومعاد — ولم يكن صادراً عن رجل الطبيعة البدائى وانما كان رد فعل صادر عن رجل مثقف حياى هذه اليوتوپيا Utopia ( العالم المثالى ) .

وهكذا يبدو أنه يوجد نوع من التناقض الذاتى على نحو ما — الذى كان يتعين على — أنا الأستاذ الذى يقبض مرتبه كاملاً — أن أميط عنه اللثام وأشرحه اذا استطعت الى ذلك سبيلاً ، لذلك تأملت وفكرت بامعان .  
وأولاً وقبل كل شئ سألت نفسى عن ذلك الشئ بالذات الذى تفقر اليه تلك المدينة العارقة فى النعيم افتقاراً شديداً ، ذلك الافتقار أو النقصان الذى يجعل المرء باستمرار فى حالة من عدم الرضا والقناعة التى تصبو اليها نفسه .

وسرعان ما أدركت أنه العنصر الذى يخلع على العالم الخارجى الطالع الأنيب — سبيله وأسلوبه الخلقى ويفذيه بالتعبير والجمال — ذلك العنصر الشامخ المعجول الذى يملؤه بالقوة والعزم والشدة والخطر .

ان ما يثير الناظر الى الحياة ويبعث فيه الشغف والاهتمام .. ان ما تمجده القصص وما ترمز اليه التماثيل وما تذكرنا به النصب التذكارية هو الحرب الخالدة المستمرة الأوار بين قوى النور وقوى الظلام .

حقيقة أن البطولة تنقلص الى فرصتها العابرة ولكنها دائماً وعن قرب تخطف النصر من بين مخالب الموت .

ولكن الصورة في أراضى « المجمع » الشهيرة على شواطئ بحيرة شوتاكوا — حيث يسود الهدوء والصمت والنظام — صورة مختلفة عن صورة الحياة الواقعية ؛ فالموت لا يلوح في أى مكان ليهدد أى انسان . ولا توجد نقطة في ذلك الحرم الآمن يحتمل أن يبرز منها خطر داهم .

ان المثل قد انتصر انتصارا كاملا لدرجة أنه لا يوجد أثر باق دال على معركة سابقة وقد ارتكن المكان على مجاديفه !

بيد أن ما تحتاج اليه انفعالاتنا الانسانية هو منظر المعركة والكفاح مستمرا موصولا .

وفي اللحظة التي تقتصر فيها على مجرد جنى الشر وأكله ، فان الأمور تصبح خسيصة دنيئة لا تليق بانسانية الانسان .

ان العرق والكفاح والطبيعة الانسانية في أقصى طاقات جهدها واحتمالها — مصهورة على السفود — ماضية على جسر من التعب والعذاب ، ولكنها مع ذلك شامخة نابضة حية تسير الى غايتها . وكلما أحرزت نجاحا أولته ظهرها لكي تحرز نجاحا آخر يتطلب جهدا آخر وعرقا أغزر وكفاحا أشد ارهاقا وعننا ، هذا هو بالذات الذى يبعث وجوده فينا روحا وثابة ويوحى الينا بجلائل الأعمال .

هذه هي الحقيقة التي يبدو أن وظيفة الآداب الرفيعة والفنون الجميلة ، هي أن تغرسها في نفوسنا وتقربها منا وتوحى الينا بها .

أما في شوتاكوا فلم يكن هناك جسر من التعب أو العنت ، ولا أدوات تعذيب حتى في المتحف التاريخي للمجمع الشهير — ولم يكن هناك عرق الا تلك القطرات التي تنفصد على جباه المحاضرين على الجمهور أو على جسوم اللاعبين في ساحة كرة القدم .

مثل هذا الافتقار الى الطبيعة الانسانية في غلوها في أى مكان ،

يبدأ لى — عندئذ — تفسيراً كافياً لسطحية الحياة فى شوتاكوا وخمودها  
وجمودها .

ولكن : ألم يكن ذلك تناقضا أتقن حسابه ليملا المرء بالغم والروع ؟  
لقد قدرت أن الأمر يبدو كما لو أن المثاليين الروماتيينك بتشاؤمهم  
حيال حضارتنا كانوا محقين آخر الأمر .

ان هناك سطحية لا براء منها تجتاح العالم . ان البورجوازية والاعتدالية  
الوسطية وجماعات الكنائس ومؤتمرات المعلمين حلت محل الأعماق  
"فأفق العليا القديمة والتنوع الروماتيينكى .

ولكى نستعيد للحياة الانسانية طابع الغلو والقوة والبدائية فعلينا  
فى المستقبل — أن نبتعد أكثر وأكثر من الواقع ونسأه اذا استطعنا ونولى  
وجوهنا شطر المحلق فى الخيال أو شطر صفحات الشاعر .

ان العالم كله — كما يبدو مبهما وآثما — لتيرة — لشخص قد هرب  
لتوه من سياج الشوتوكوا يبنى — مع ذلك — قدما فى نطاق تلك المثل  
بالذات ويطيعها — بيد أن تلك المثل ستجعل منه آخر الأمر حتما مجرد  
مجمع شاتوكوانى على نطاق واسع .

Was in Gesang soll leben muss in Leben untergehen

حتى فى وقتنا الحاضر فى بلادنا — فان صفات الدقة والاستقامة والقدرة  
على الاتفاق بحل وسط — للحصول على أية ميزة مهما صغرت — قد  
بخست قدر كل الصفات الأخرى وتكاثرت عليها فأصبحت أغلبية ضد  
أقلية .

ان البطولات العليا وألوان النخوة والمروءة والشهامة وصنوف المذاق  
النادر فى الحياة ، قد انقرضت وانتهى أمرها وفقدت حقها فى الوجود \* .

\* هذا الحدث ألف قبل حربى كوبا والفيليين ، مثل هذه الانفجارات  
لانفعال السيادة ليست سوى أحداث استطرادية فى عملية اجتماعية موصولة  
يبدو انها تجنح فى المدى الطويل الى الانصباب فى القوالب والمثل  
الشاتوكوانية

بهذه الأفكار في عقلى كان القطار ينهب بى الأرض نحو مدينة بقالو Buffalo — عندما باغتنى بالقرب منها — منظر عامل يؤدي عملا فوق حافة بناء حديدى يكاد يرتفع الى عنان السماء — هذا المنظر ردى الى عالم الواقع وأعاد الى حواسى .

وعندئذ أدركت بوميض من البصيرة أننى كنت مغرقا فى عمى سلفى بحت، وأننى كنت أنظر الى الحياة بعيون مشاهد يراها من بعيد .

إن رغبتي فى البطولة ومشهد الطبيعة الانسانية على جسر العذاب — أعمتني عن رؤية الميادين العظيمة للبطولة القائمة من حولي والتي فشلت في رؤيتها حية نابضة ماثلة للعيان .

لم أستطع أن أفكر فيها الا كاشياء ميتة تستحق التقريع والازدراء كما صورتها وأسمتها ولوتها وكستها صفحات القصص الرومانتيكية .

ومع ذلك فقد كانت قائمة أمامى تنطق بها الحياة اليومية للطبقات الكادحة .

إن البطولة لا تلمس في قمعة المعارك والحروب وأعمال الفدائية فحسب ولكنها موجودة وقائمة وماثلة أمام أعيننا فوق كل جسر من جسور السكك الحديدية وفي كل مبنى من المباني المزودة بأجهزة اطفاء الحريق ، التي تقام اليوم وتنشأ في كل مكان .

ان الحاجة الى الشجاعة والبطولة لا تنتهى . اننا نحتاج اليها فى قطارات البضاعة وفوق السفن والمواخر وفي حظائر الماشية والمناجم وفوق أرمات الأخشاب . اننا نحتاج اليها وتلمسها فى رجال المطافئ وفي حراس الأمن من رجال الشرطة ، نحتاج اليها دائما ونجدها دائما ، فالمدد زاهر وموصول .

هنالك — على مدار العام ، وفى مكان ما — تجد الطبيعة الانسانية فى علوها وقوتها .

وكلما حصد منجل ، أو أهوت فأس ، أو هدم معول ، أو جرفت مجرفة ، وجدت البطولة بكل ما يصاحبها من عرق وآلم وتضحية وهى تكافح بكل قواها الصابرة من الاحتمال فى أقصى درجاته طوال ساعات وساعات من الجهد والمثابرة والكفاح — ساعات تطول وتطول .

وعندما تنهت — كمن يستيقظ من سبات عميق — لتلك الحياة البطولية التى لا تلقى منا تمجيذاً ولا تخليداً سقطت كفتا الميزان من عيني وأجتاحتنى موجة من التعاطف والتقدير — أعظم من أى شعور أحسست به فى حياتى من قبل — لتلك الحياة العادية للرجل العادى . لقد امتلأت روحى بهذا الشعور ، لقد انقشعت الغشاوة التى خيمت على بصرى، وبدأت أرى الفضيلة بالأيدى المرقة الخشنة والجلد القدر هى الفضيلة الوحيدة الأصيلة التى لها من الحيوية الكافية ما يستحق التقدير والاعتبار .

فلتضع كل فضيلة أخرى حملها — فلا توجد فضيلة بسيطة ولا شعورية على الاطلاق لا تتوقع جزاء ولا شكورا ولا تلقى تكريما ولا اعترافا مثل هذه الفضيلة بالذات .

هؤلاء هم جنودنا ، هؤلاء هم ركائزنا ودعائنا ، هؤلاء هم أصلاب حياتنا .

منذ سنوات عدة إبان زيارتى لقينا اتقانى شعور مماثل بالروعة والتبجيل وأنا أنظر الى الفلاحات وقد وردن من الريف الى المدينة يوم السوق ليمن ويشتزين ، وكانت الكثيرات منهن عجائز قد تيبست وجوههن ولفحتها السنون فامتلات بالتجاعيد ، وكن يغطين رءوسهن بالمناديل ويلبسن

« فساتين » تحتية قصيرة ويرتدين جوارب طويلة صوفية ثقيلة فوق سيقانهم النحيلة مخترقات الشوارع المتلألئة بالأضواء في جد وجهامة لا يلتفتن يمينا ولا يسارا ، لا يشغلن شيء الا أداء واجبهن ولا يشعرن بحسد حيال أى شيء وانما تنطوى قلوبهن على التواضع ، بميدات عن أوضاع الحياة . ولكن المرء عندما يفكر فى الأمر مليا يجد أنهم فى قرارهم كمن يحملن النسيج الكلى لمفاسد وبهاء تلك المدينة فوق ظهورهن المكدودة .

والا فأين يتسخر كل ذلك دون كدهن وعملهن فى الحقول ؛ ذلك العمل الذى لا يلقى جزاء ولا شكورا ؟

وهكذا الحال عندنا ، ينبغى أن تقيم مدينة مثل بوسطن نصب الاعتراف بالجميل والتبجيل ليس للشعراء والفقراء الحريين ولكن للعمال الكادحين فى قطارات تحت الأرض من الطليان والمجريين .

ان الذى قرأ تولستوى Tolstoi — منكم يلاحظ أنى مررت بنفس عرق الشعور الذى مر به بكرهيته الشديدة ومقته لكل ما يعتبره العرف الدارج ممتازا أو شهيرا وتأليهه فقط لصفات الشجاعة والنخوة والصبر والمعروف وبكم الرجل الطبيعى اللاواعى .

قلت لى نفسى : أين هو الآن تولستوينا ليجلو لنا حقيقة ذلك كله فتنفذ الى قلوبنا نحن معشر الأمريكين وتملؤنا ببصيرة أقوم سبيلا وتفظنا من تلك الروماتىكية الأدبية المنحوسة التى تتغذى ثقافتنا ( كما تسمى نفسها ) من لبانها الكاذب المزور ؟

ان القداسة تحيط بنا من كل جانب وتغمر كل شيء حولنا ولكن الثقافة تحجب نفسها بأستار صفيقة لدرجة أنها لا تحس بهذه الحقيقة .

هل لهذه الرسالة من مبشر يهدى إليها من طراز هولز Howells أو كيلنج Kipling ؟

أم أنهما ما زالا غارقين الى قمة رأسيهما فى العمى السلقى ولم يلبثا درجة كافية من الانسانية ليحسا بالبهجة الباطنية والمعنى العميق لوجود العامل الكادح بحيث يستحقان الكشف عنهما ؟

هل لزام علينا أن نتنظر حتى يولد شخص ثم ينشأ ويعيش كاملا ثم يهبط عليه وحى السماء ليصبح أديبا ينطق بهذه الرسالة ؟

وهناك أخذت فى ذلك اليوم الى نفسى وغمرتنى سكينه واحساس باتساع مجال رؤيتى وأفتى وشعرت بشعور أرى من الانصاف لنفسى أن أسميه بصيرة دينية فى الكون .

ان الله لا ينظر الى صوركم ولكن ينظر الى قلوبكم ، والفروق الاجتماعية بين الناس والفروق الفكرية وفروق الثقافة والنظافة والملبس وكل ما يصطنعه الناس لأنفسهم من مزايا أو يخلعونه على أنفسهم من متاع القُرور ويتشبثون به فى صلف وخيلاء — كل هذه الفروق تصغر فى عين الله لدرجة أنها تتلاشى .

« فاما الزبد فيذهب جفاء واما ما ينفع الناس فيمكث فى الأرض » ، ولا ينبغى أن يمكث سوى حقيقة وجودنا — شرايين وأوعية للحياة لا يحصيها عد — كل منا له مشكلاته الخاصة ، ولكن علينا جميعا أن نتكاتف لحلها بالافادة بكل ما فىنا من شجاعة وصلاحية وخير ، أيا كانت وأنى كانت .

ان ممارسة الشجاعة والصبر والمعروف ينبغى أن تشكل الجزء الأكبر من الأمر كله ، أما فروق المكانة بين الناس وأوضاعهم المختلفة فليست سوى جالة أو طريقة لتنويع الشكل الظاهرى والسطح المظهري الذى تستقر تحته تلك الفضائل وتفرز آثارها .

على هذا المنسوب تجد أعرق الحياة الانسانية فى كل مكان أبدية سرمدية خالدة .

وإذا كانت هناك صفات أو خصائص انسانية نخص بها بعض الأفراد دون غيرهم فلا بد أنها خصائص تنتمي الى الشكل الظاهري والسطح المظهري — انها مجرد عرض أو زينة أو نافلة .

وهكذا — تسوى حياة الناس ويتم تسطيحها علوا وانخفاضا — علوا في معانيهم الباطنية المشتركة ، وانخفاضا في مظاهرهم الخارجية وما يصطنعونه من أمجاد .

بيد أنه ينبغي لنا أن نعترف دائما أن هذه البصيرة الهادفة للتسوية والتسطيح تجنح الى أن يعاودها الابهام والالتباس ، ويرتد العمى السلفي ويغلفها ثائية بحيث ان الأمر ينتهي بنا ثانيا الى أن نظن أن خلق الحياة ليس له من غرض سوى اصطناع مواقف تستحق الذكر والشهرة واحراز مميزات اصطلاح الناس على تمجيدها وحيازة أفضال تستوجب الثناء وتستحق الثواب .

ثم ينبثق بعد ذلك مسو جديد في شكل نبي ديني عليه أن يقوم بالتسطيح فيرفع الغشاوة عن أعيننا ويبدد العمى عن بصائرنا — ذلك كان شأن بوذا والمسيح والقديس فرانسيس وروسو وتولستوي ، ولكن شيئا خشيئا ، وقليلًا قليلًا ، ورويدا رويدا ، يزداد رصيد الانسانية من الكسب الراسخ . فالعالم بالفعل يزداد انسانية، ودين الديمقراطية يتسع وينتشر ليصبح عقيدة راسخة شاملة .

ذلك — كما قلت — أصبح ، لفترة ما ، عقيدتي ، وأشاع في نفسي شعورا غامرا بالرضا .

ولقد عرضت لكم القضية في شكل تذكارات شخصية لكي آخذ بيدكم اليها أخذًا مباشرًا وكاملًا ، وبذلك أوفر الوقت .

ولكنى سأناقش بقية القضية معكم الآن بطريقة غير شخصية وأكثر موضوعية .

ان فلسفة تولستوى التسطحية المسوية بدأت قبل أن تتأهب أزمة الالتيث ( الملائخوليا ) بوقت طويل ؛ تلك الملائخوليا التى سجلها فى تلك الوثيقة الرائعة المسماة « اعترافى » .. التى مهدت الطريق لمؤلفاته الدينية الأخرى .

وفى تحفته الفنية الخالدة : « الحرب والسلام » — التى تحتل أعظم مكانة فى القصص الانسانى — بلا منازع — أعطى تولستوى دور البطل الروحى لجندى صغير بسيط فقير يسمى كاراتائيف Karatieff . وهو رجل ذو مروءة ونخوة ومعوثة للغير ، ويفيض مراحا واخلاصا وولاء . لذرة أنه على الرغم من جهله وقذارته فان رؤيته تفتح أبواب السماء . التى كانت مغلقة — تفتحها لعقل الشخصية الرئيسية للكتاب .

ولقد قصد تولستوى بذلك أن يعيد القارىء الى حظيرة الله .

لقد أسر الفرنسيون كاراتائيف المسكين البائس ، وعندما نهكه التعب والمذاب والحمى وأصبح عاجزا عن الاستمرار فى المشى ، قتله الفرنسيون رميا بالرصاص كما قتلوا غيره من الأسرى ابان التمهقر الشهير من موسكو ، ان آخر مشهد تراه لهذا الجندى هو وجهه الصغير الدقيق مستندا الى جوار شجرة بتولا قد كستها الثلوج ، منتظرا الموت فى بسالة وشجاعة دون شكاية .

يقول تولستوى فى كتابه « اعترافاتى » : « كلما فحصت حياة هذه الطبقات الكادحة وازددت لها فهما أصبحت أكثر اقتناعا بأنهم مؤمنون حقا ، وان ايمانهم وحده هو الذى يمنحهم الاحساس بالحياة والقدرة

عليها وامكان الوجود فيها . وعلى العكس منهم تماما أولئك الذين ينتمون الى طبقتنا الذين يحتجون على القدر ويفضون من صرامته ! لقد أبطرتهم النعمة ... ان هؤلاء القوم الكادحين يتقبلون الأمراض والبلايا والنكبات دون ثورة أو معارضة ، وانما بنفوس راضية ، وثقة راسخة هادئة : انها قدر مقدور على الجميع لا سبيل الى تلافيه ولا بأس بتحملة .

وكلما عشنا بقولنا وفكرنا قلّ فهمنا لمعنى الحياة ، ذلك أننا لا نرى في الألم والموت الا مزاجا قاسيا من القدر . على حين أن هؤلاء القوم يعيشون ويقاسون ويقتربون من الموت ويواجهونه بهدوء ، بل غالبا ما يستقبلون الموت راضين هائنين بنفوس مطمئنة تحب لقاءه .

إن هناك حشودا هائلة منهم قد وصلوا الى قمة السعادة والهناءة والسكينة على الرغم من أنهم محرومون مما يبدو لنا أنه وحده الكفيل بالاسعاد في الحياة .

ان أولئك الذين يفهمون معنى الحياة ويعرفون كيف يعيشون ويموتون على هذا النحو لا يعدون بالمتنى والثلاث والمشرات ولكن بالمتات والألوف والملايين .

إنهم يعملون في هدوء ويتحملون أنواع الحرمان وصنوف المذاب وألوان الألم ويعيشون ويموتون ولكنهم طوال حياتهم يرون الخير دون أن يروا الباطل .

وجدت لزاما علىّ أن أحب هؤلاء الناس . وكلما تغلغت في حياتهم ازداد حبي اياهم ، وأصبحت أنا أيضا أكثر قدرة على الحياة .

ولقد حدث أن حياة مجتمعنا — حياة المتعلمين والأغنياء — لم تكن مقززة لي فحسب — ولكن الأكثر من ذلك أنها فقدت كل معنى وشبه

وشكل وصورة فى عيني . إن كل تصرفاتنا وأعمالنا وتديرونا وعلومنا وقوتنا بدأت تظهر لى فى ضوء جديد ومعان جديدة .

بدأت أفهم أن هذه الأشياء قد تكون وسائل لذيدة من وسائل قضاء الوقت ؛ ولكن لا يستطيع المرء أن يلمس فيها أى عمق ؛ فى حين بدت لى حياة القوم الكادحين — حياة الحشود الهائلة العدد من البشر الذين يسهمون فعلا وحقا فى الوجود — بدت لى فى ضوءها الصحيح .

لقد أدركت أن حياتهم هى الحياة الحقيقية ، وأن معنى الحياة الذى يضيفه عليها عيشهم الكادح هو الحق والحقيقة . ولقد آمنت بهذا الحق وتقبلت هذه الحقيقة \* .

وبنفس الطريقة يهيب ستيفنسون Stevenson بمروءتنا وتقوانا حيال الفضيلة الأولية للجنس البشرى فيقول فى كتابه « عبر السهول » \* :

« ما أغرب هذا الانسان وأعجب صفاته وخصائصه ! . ياله من مسكين بائس ، يطرح فى العذاب الهون لقاء عرض زائل تافه ، تحتوشه الوحشية ويهبط وينحط بوحشية ، قضى عليه أن يعيش على أشلاء حياة أخيه الانسان قضاء لا علاج ولا برء منه . من ذا الذى كان يلومه لو كان قدء من نفس مصيره وأنه مخلوق متوحش فحسب ؟ .. [ ولكن ] ليس المهم أين تنظر اليه ، ولا تحت أى مناخ نلاحظه ، ولا فى أى مرحلة من مراحل المجتمع فرصده ، ولا فى أى درك من الجهل نضعه ، ولا بأى أفعال من الأخلاق الخاطئة ينوء بها كاهله .

وسواء أكان يدب على الأرض

أم يركب متون السفن فى البحر

• My Confession, X. (Condensed).

• Across the Plains: "Pulvis et Umbra" (abridged).

فهو مخلوق تعود المصاعب ، وألف المشاق والمتع الشريفة .  
 وأكثر آماله بريقا كمنجة في حانة ، وعاهر من بنات الهوى تبع نفسها  
 لتسرقه . وهو — بسبب كل ذلك ومن أجل كل ذلك — بسيط ساذج  
 مرح عطوف كقطر ، يكدح باستمرار ويخوض البحر اللجج ليغرق من  
 أجل الآخرين !!

في أحياء المدن الفقيرة القذرة وهو يتحرك وسط الملايين الذين  
 لا يابهون به — ساعيا الى وظائفه الآلية بدون أى أمل في أن يتغير حاله  
 في المستقبل ، وبدون أى شغف أو تمتع بالحاضر . ومع ذلك يتشبث  
 بفضائله ويتعفف بما يليق بأنواره كأنسان ويمظف على جيرانه ، راكضا  
 وراء سراب ، حتى اذا جاءه لم يجده شيئا ..

انه يلقي ازدراء العالم .. بخدمات يؤديها ، وغالبا ما يقف ثابتا على  
 الصراط .. ففي كل مكان نجد فضيلة يمتاز بها ويعرض عليها ؛ وفي كل  
 مكان بعض اللياقة في التفكير والشجاعة ؛ وفي كل مكان يرتفع علم لفضيلة  
 الانسان العابثة آه .. ! ليتنى أستطيع أن أبين لك ذلك .

لو كان في مقدورى أن أريكم هؤلاء الرجال والنساء في مشارق  
 الأرض ومغاربها في كل مرحلة من مراحل التاريخ تحت كل ظروف سوء  
 الاستعمال للخطأ ، وفي كل ظرف من ظروف الفشل — دون أمل — دون  
 معونة — دون جزاء ولا شكور — ومع ذلك ما زالوا يحاربون معركة  
 خاسرة للفضيلة متشبثين بخرقة رثة من الشرف — هي الجوهرة المسكينة  
 لأرواحهم .

كل ذلك صحيح مثلما هو رائع . وما أشد حاجتنا الى أمثال تولستوى  
 وستيفنستون ليحفظوا بشعورنا حيًا حيالها . بيد أنكم تذكرون الرجل  
 الايرلندى الذى عندما سئل : « أليس كل رجل خيرًا مثل الآخر ؟ »  
 فأجاب : « نعم ، وخير منه أيضا » .

وبالطريقة نفسها — فيما يبدو لى — نجد أن تولستوى يبالغ فى تصحيح ميولنا المتحيرة ، وأهوائنا الاجتماعية ، عندما يقصر حبه على الفلاح الكادح ثم يفتلق قلبه على الاطلاق فى وجه الرجل المتعلم .

فلنسلم بأنه كان فى شوتاكوا مجهود أخلاقى صغير وبعض العرق والمجهود العضلى ، ولكن فى أعماق وأغوار أرواح القوم هناك لا بد وأنه كان يختفى فيها شىء من هذا النوع — نوع من القلق الباطنى — فضيلة حيوية لا تفتقد عند الحاجة .

وبعد ذلك كله فان السؤال يعود الينا ثانيا ويلح علينا :

هل بالتاكيد وعلى سبيل الجزم أن الظروف والأحوال المحيطة بالفضيلة تحدث هذا الفرق الضئيل النحيل فى أهمية النتيجة والأثر ؟ .

هل الفائدة الوظيفية والنفع والقيمة الاجرائية للعالم لكمية معينة محدودة من الشجاعة ؛ كالمروءة والصبر ، لا تزيد اذا كان صاحب تلك الفضائل فى وضع متعلم يؤدى وظائف ذات آثار بعيدة المدى عما هى الحال اذا كان أميا جهولا يقطع الأخشاب وينزح الماء لمجرد أن يبقى حيا يرزق ؟

ان فلسفة تولستوى — على الرغم من أنها منيرة بالتاكيد — تظل على المستوى التجريدى الزائف .

انها تتصف الى حد كبير بنزعة المتشائم الشرقية وتتطمم بكمية وافرة من العدمية التى تزخر بها فلسفة تولستوى ، والتى تملن أن العالم يرمته وبحقائقه ومميزاته ليس الا باطلا وزيفا وغشا وخداعا كله مكر ونكر ..

انا لن نستطيع أبدا بأفهامنا الغريبة أن نمتقد أن العالم الظاهرى هو مجرد سراب خادع مزيف .

فمقلنا الغربي وفهمنا للعالم يقر كليا بأن المباحج والفضائل الباطنية هي الوظائف الحتمية لعمل الحياة ولكنها متأكدة أن ملاحق المسرحية يلعبون فيها دورا ايجابيا أيضا .

إذا كان من المته في الروماتسيكية ألا تصترف بالبطولة الا اذا رأتها معنونة ومكسوة في الكتب فمن المته أيضا ألا نراها الا خائضة في الوحل لابسة حذاء قذرا وقميصا بلله العرق في الحقول .

الحقيقة أن البطولة معنا مستترة في كل وضع : هنالك في شاتوكوا . وهنا في جامعتك وفي ساحات البضائع وبيوت المال وفوق قطارات النقل وفي بلاط قيصر روسيا !

يبد أننا غريزيا ، نجمع بين شيئين في الحكم على الأهمية الكلية والمعنى الكلي لانسان ما .

فنحن نشعر بأنها حصيلة ( اذا كان من الممكن حساب هذا الناتج ) فضيلته الباطنية وبيئته الخارجية ولا يمكن اعتبار كل واحدة منها على حدة ولكن لا بد من وصل الاثنتين وقرنها .

افحص تأليه تولستوى للعامل اليدوى البحث — بالحقائق .

هذا ما كتبه المستر والتر ويكوف . Mr. Walter Wyckoff . بعد أن اشتغل كعامل غير فنى في هدم بعض المباني في وست بوينت West Point عن الحالة الروحية لتلك الطبقة من الرجال التي اختار أن ينتمى اليها مؤقنا لفترة ما ..

« ان الملامح الصامتة لحالتنا واضحة بما فيه الكفاية ، فنحن رجال كبار ولكن بلا حرفة . وفي سوق العمل نقف مستعدين لأن نبيع لمن يدفع أعلى أجر — قوتنا العضلية البحتة لمدة عدد معين من الساعات كل يوم . نحن

إذن على أسفل درجة من منسوب العمل . وعندما نبيع قوتنا المضلية في السوق الحر المفتوح لقاء ما تساويه عندئذ حسب العرض والطلب — فإنا نبيعها تحت ظروف عجيبة ؛ فهي رأس المال الوحيد الذى نملكه ، ولذلك لا نستطيع أن نتوقف أو نتعطل « كئمن احتياطي » .

« إننا نبيع تحت الدافع الملح لسد غائلة الجوع . ومجمل القول أنه يتحتم علينا أن نبيع أو نهلك جوعا . وحيث ان الجوع مسألة ساعات قليلة وليست عندنا طريقة أخرى للملاقة تلك الحاجة واشباعها ، فعلى أن نبيع فورا لقاء ما تقدمه الله لنا مقابل عملنا » .

« أما صاحب الله ، الذى يستخدمنا فهو يشتري العمل فى سوق غالية ، وهو لذلك يستقطر ويمتصر منا أقصى مجهود ممكن فى مقابل الثمن الذى يدفعه » .

« أما رئيس العمل فهو مطمئن من حيث أغراضه ، وهو يعرف عمله جيدا ويتقنه — وهو السيطرة التامة علينا .

« انه شخص لم يسبق له أن رأىنا ، وهو يطردهنا بمجرد أن نزيح الأتقاض ونزفها .

« وفى نفس الوقت يتعين عليه أن يمتصر منا أقصى ما يمكن من العمل الجسماني الذى يستطيعه كل منا فرديا أو جماعيا .

« فإذا حدث لأحدنا أن سقط اعياء وأصبح منهوك القوى عاجزا عن ذلك فلن يخسر هو شيئا — اذ سرعان ما تمده السوق بغيرنا ليحلوا محلنا وهكذا ...

« نحن رجال جهلاء ، ولكننا نرى بوضوح جدا أننا بعنا عملنا حيث استطعنا أن نحصل على أعلى أجر وأن صاحب عملنا قد اشتراه حيث استطاع

أن يشتره بأبخس الأثمان . لقد دفع غالبا وعليه أن يحصل على أقصى مجهود ممكن — وبدافع غريزي قوى عندنا نحاول أن تؤدي أقل ما يمكن من الجهد .

« لقد انمحي من مثل ذلك العمل الذي تؤديه كل عنصر من العناصر المكونة لكرامة العمل ونبله .

« اننا لا نشعر بأية كرامة شخصية في أدائه أو تقدمه ، وليس بيننا وبين صاحب العمل إحساس مشترك بالمصلحة العامة .

« لا توجد متعة الاحساس بالمسئولية ولا لذة الشعور بالأداء ، وانما الملل البليد والسأم الكال للضنى الساق . وجل هنا مركز في الدقيقة التي نتعق فيها من العمل واساره وعلامة الانصراف ثم الدقيقة التي تسلم فيها أجورنا في النهاية .

« وحيث إننا لا نزيد عن كوننا رواسب في سوق العمل وليس لدينا أى ضمان للعمل الدائم ولا يوجد لدينا تنظيم يربطنا ويصون حقوقنا ويضمن مستقبلنا — فلا نتوقع الا أن نعمل تحت عين رئيس العمل الخارقة وأن نساق كالعييد لأداء ما يطلب منا عمله ..

كل ذلك ليقول لنا — في الحقيقة : « ان حياتنا هي حياة جافة يابسة جرداء يائسة بائسة » . ومثل تلك الحياة القاسية الجرداء اليائسة — ليست بالتأكيد — الحياة التي نرغب أن نظل نعيشها الى الأبد . ولم ذلك ؟  
ألكونهم قذرين ؟

حسنا — لقد كان نانسن Nansen أشد قدارة منهم طوال رحلته الفظيمة ، ومع ذلك لا نودرى حياته من أجل ذلك . هل السبب هو انعدام الاحساس ؟

اننا ندرّب جنودنا على عدم الاحساس ومع ذلك نمجدهم ونرفعهم الى أعلى عليين .

هل هو الفقر ؟

لقد حَسِبَ الفقر ذرة جمال توجت حياة كثير من الأبطال .

هل هى العبودية لعمل مع فقدان المتع الرفيعة ؟

هذه العبودية وهذا فقدان هما جوهر الشجاعة فى أسمى مراتبها ، ويحسبان دائما أوسمة استحقاق فى سجلها — اقرأ سجلات من كرسوا حياتهم لأداء رسالة خير فى أنحاء العالم كافة .

انها ليست راجعة لأى من هذه الأسباب اذا أخذ وحده — وفى حد ذاته — كلا ولا حتى اذا أخذت كلها مجتمعة .

إن مرد هذه الحياة البائسة اليائسة ليس راجعا اليها . فقد يعيش رجل كعامل غير فنى ويؤدى عمل العامل غير الفنى ، ومع ذلك يعتبر من أسمى وأنبل مخلوقات الله .

ولا شك أنه كان يوجد أشخاص من هذا الطراز فى تلك العُصبة من العمال التى وصفها المؤلف ، ولكن تيار أرواحهم كان خفيا — وكان المؤلف غارقا الى قمة رأسه فى العمى السلفى بحيث لم يستطع أن يتبين هذا التيار أو يحس به فضلا عن أن يحفل بوجوده .

فاذا كان هناك أفراد أفذاذ خلقيا على هذا النحو فما الذى جعلهم يختلفون عن الباقي ؟

لا يمكن أن يوجد الا سبب واحد وهو أن أرواحهم عملت وتحملت فى طاعة لمثل أعلى باطنى ، أما رفاقهم فلم يحركهم أى شيء يستحق هذه التسمية .

هذه المثل العليا في حياة الآخرين هي من بين تلك الأسرار الدفينة التي قد لا نستطيع النفاذ إليها أبداً ولو أن شيئاً ما في سلوك صاحبها غالباً ما يفصح عن وجودها . وفي حالة السيد ويكوف Wyckoff بالذات فانا نعرف بالضبط أى نوع من المثل الأعلى فرضه على نفسه .

فهو جزئياً قد أخذ على عاتقه أن يتم عملاً عازوماً مجداً ولكنه أساساً كان راغباً في تعميق بصيرته الحانية لينفذ بها إلى حياة زملائه في العمل .

من أجل ذلك فإن عرقه وكدحه يصطبغان بمعنى بطولى ويجعلاننا نحترمه ونقدره ونبجله تبجيلاً استثنائياً — ولكن من السهل أن تتصور رفاقه بمثلهم العليا العديدة الأخرى .

وبصرف النظر عن زوجاتهم وأطفالهم ، فقد يكون أحدهم ممن تدينوا بعقيدة جيش الخلاص وفي قلبه بلبل يتغنى طوال الوقت الذي يعمل فيه بالعفو والصفح والتكفير عن الذنوب والغفران .

وقد يكون من بينهم في هذه العصبة رسول على غرار تولستوى نفسه ، أو مواطنه الرفيق بونداريف Bondareff — يتطوع للعمل ويفنى فيه كرسالة دينية واجبة الأداء .

ثم إن الولاء للطبقة التي ينتمون إليها كان بلا شك مثلاً أعلى يدين به الكثيرون منهم .

ومن يدري مقدار تلك الرجولة العلوية السامية المصاحبة للفقر التي نفذت إلى مكنونها فيليبس بروكس Philips Brooks — وجوداً أو عدماً في تلك العصبة ؟

« إن الأرض الوعرة الخشنة الجرداء » — يقول فيليبس بروكس Philips Brooks هي الفقر إذا ما عشت فيها — أرض كثيراً ما أشكر

الله اذا ما استطعت الحصول فيها على ثمرة أقتات بها ، أو درنة أرد بها غائلة جوعى .

« ولكن العيش فيها — حقيقة — ودعها تشهد لى نفسها — دون أن أهون من أمرها أو أجللها بالعار بأن أقارننها بالقياس الى الأراضى الأخرى — كالقرض الحسن يضاعف لك الجزاء أضمافا مضاعفة . ان لها من الصفات والمميزات مالا يتوافر فى أرض أخرى .

« انظر — هل توجد أرض كهذه الأراض الجرداء العارية الفقيرة تستطيع أن تتجلى فيها الجيولوجية الخلقية للعالم — كما تتجلى هنا ؟ انظر الى ضلوعها الجامدة تشمخ قوية متماسكة .

« لا توجد حياة مثل الفقر — تصل المرء بلب الأشياء وتجعل الناس يعرفون معناها وتجعلنا نشعر بمغزاها وطعمها مجردا من كل الوسائد اللينة .

« ان الفقر يقرب بين النفوس فتتلاقى ويوثق بين القلوب فتتعارف وتأتلف — والفقر فى علوه وشموخه وسموه فوق كل شىء يطالب مدويا فى صرخة عالية — بالايمان بالله .

« اننى أعلم الى أى حد من السطحية وعدم الاحساس تبدو كلمات المديح والاطراء للفقر — كما لو كانت مجرد سخرية هازئة .

« ولكنى واثق من أن كرامة الرجل الفقير وحرته واحترامه لنفسه ونشاطه تتوقف على معرفته الودية المخلصة بأن فقره وجهة حقيقة لنمط من الحياة له مقاييسه وخصائصه وفرصة لشحذ الهمم وصقل الخلق — ومناجبه للسعادة والايمان بالله الذى يكشف للفقير عن ذاته ويرفع العشاوة عن بصيرته .

« دعوه يقاوم انعدام الشخصية والخاصية التي كثيرا ما تصاحب الفقر ». —  
 « دعوه يصبر على احترام الظروف التي يعيش فيها ، دعوه يتعلم حبا —  
 حتى اذا أصبح غنيا فانه يخرج من باب الفقر الحقير الذى صاحبه طويلا  
 وألفه ، وهو آسف ونادم على تركه شاعرا بالتكريم والتبجيل نحو ذلك  
 المنزل الضيق الذى عاش فيه طويلا \* »

إن الخسة والدناءة والعقر والعقم التى تلوث حياة العامل العادى  
 — مردها الى حقيقة افتقارها الى مثل تلك المنابع الباطنية العلوية المثالية .  
 إن آلام الظهور الكادحة والساعات الطويلة والأخطار — تحتمل  
 بصبر — فى سبيل ماذا ؟

للحصول على حفنة من التبغ — كوب من الجعة — فنجان من القهوة  
 — وجبة وفراش — ثم يبدأ ثانية فى اليوم التالى ليتحایل ويتجنب الواجب  
 بقدر ما يستطيع .

هذا هو فى الحقيقة السبب فى كوننا لا نقيم نصبا تذكارية للعمال  
 الذين يعملون فى قطارات تحت الأرض على الرغم من أننا نحن الذين  
 نجدهم لذلك العمل وعلى الرغم من أن حياة مدينتنا تقوم على قلوبهم  
 الصبورة وظهورهم الحاملة للعبء فى جلد وأكتافهم القوية .

وهذا هو السبب فى أننا نقيم النصب التذكارية بالفعل لجنودنا الذين  
 عاشوا فى ظروف خارجية أكثر قسوة وضحكا من ظروف عمالنا .  
 بيد أن المفروض أن جنودنا يتبعون مثلا أعلى يحاربون من أجله .  
 أما عمالنا فليس لهم منه نصيب .

إنكم ترون أيها الزملاء — كيف تتعقد المشكلة وتغلظ ، والى أى

\* Sermons. 5th series, New York; 1893; pp. 166; 167.

مدى يبدأ هذا التعقد والتشابك لطبيعتنا الانسانية المدهشة ، فى التطور على أيدينا .

لقد رأينا ما فينا من عمى ولا مبالاة وجمود وموت حيال بعضنا البعض الآخر — وهى صفات أضحت من ميراثنا الطبيعي — ومع ذلك وعلى الرغم منها فلقد اضطررنا الى الاعتراف بمعنى باطنى للحياة يمضى طوال المسرحية وهو موجود فى حياة غيرنا حيث يكون آخر ما نرى وأبعد ما نتصور وأقل ما نلاحظ .

والآن يجدر بنا أن نقول ان مثل هذا المعنى الباطنى للعيش من الممكن أن يكون كاملا وثابتا وحقيقيا لنا — فى حالة واحدة فقط — عندما ترتبط السعادة الباطنية والشجاعة والاحتمال والصبر — بشئ أعلى .

ولكن ماذا نعى على وجه التحديد بالمثل الأعلى أو المائلة ؟ أفلا نستطيع أن نحدد معنى مثل هذه الكلمة ؟ لحد ما نستطيع .

فالمثل الأعلى — أولا — ينبغى أن يكون شيئا مفهوما عقليا — شيئا نعقله ونعنيه وليس شيئا نأتيه على غير وعى منا .

ولا بد أن ينطوى هذا المثل عندما ندين به على ذلك النوع من وجهة النظر الرفاعة المتألقة الوهاجة التى تصاحب كل المائلات والحقائق العقلية .

ثانيا — ينبغى أن يتوافر فى المثل الأعلى عنصر الجدة — الجدة على الأقل بالقياس لمن يؤمن بالمثل ويدين به .

ان الروتين المسلوق ، أو العادة المنقوعة تتنافى مع المثالية ، على الرغم من أن ما يكون روتينا مسلوقا عند شخص قد يكون مثلا أعلى بكل عناصر ومقومات الجدة عند شخص آخر .

وهذا يدل على أنه لا يوجد شئ مثالى مطلق .

فالمثل العليا نسبية بالقياس الى حياة من يدينون بها ويتعشقونها .  
فتلافي الحضيض ليس جزءا من الوعي بتاتا لنا هنا — ولكنه للكثير  
من اخواننا في الانسانية هو أكثر المثل شرعية التي تشغل بالهم .  
واذن — من الناحية المجردة العارية المباشرة فانكم تبيينون أن المثل  
المجردة هي أرخص وأتفه الأشياء في الحياة .

فكل إنسان عنده مثل في صورة أو أخرى ، سواء أكانت شخصية  
أم عامة ، سليمة أم خاطئة ، عالية أم واطئة : وانك لتجد أصغر الناس  
أحلاما من المدعين والمتحمسين بلا روية ، والحالمين والمخمورين والمتعاسين  
عن أداء الواجب ، ومحترفي الشعر الذين يتبعهم الغاؤون ، وفي كل واد  
يهيمون ، ويقولون مالا يفعلون ، ولا يبذلون مثقال ذرة من جهد أو كفاح  
أو شجاعة أو تحمل أو صبر .. تجد هؤلاء جميعا يتشدقون بالمثل العليا  
التي ترمع في أفواههم وتجذب في سلوكهم — إن نفوسهم تطفح بالمثل  
العليا على أوسع نطاق .

إن التربية — لكونها توسع أفقنا ووجهة نظرنا — هي وسيلة لمضاعفة  
وتعدد مثلنا العليا ولتزويدنا بالجديد منها لنستوضحه في مجال وعينا .

ولو أن أستاذكم الجامعي بقميصه المنشى وعويناته اللامعة اكتفى بذخيرة  
من المثل العليا — وقنع بها في حد ذاتها لتجعل حياته ذات معنى ومغزى  
وقيمة — لأصبح هذا الأستاذ أهم الناس وأعقهم وأكثرهم قيمة على  
الاطلاق — ولكان تولستوي أعمى عمى كاملا لاحتقاره له ودمغه بصفات  
الغرور والتقليد الأعمى والادعاء العلمي . ولأضحت كل بصيرتنا المقدسة  
للعمل العضلي مجافية للحقيقة وغير ذات موضوع .

ولكنكم تشعرون غريزيا أن مثل تلك الاستنتاجات خاطئة .

وكلما كثر نصيب المرء من المثل العليا — استمر احتقارك اياه — بصفة عامة — اذا وقف عند هذا الحد فحسب — حد حيازة أكبر عدد من المثل العليا — واذا كان العامل لا يمارس فضيلة من فضائله ممارسة عملية فلا يبدى شجاعة ولا ضبط نفس ولا قدرة على الحرمان ولا بذل العرق والدم والدموع فى محاولته لتحقيق تلك الفضائل .. فنصيبه منك أيضا الازدراء والاحتقار . من الواضح اذن — أن هناك شيئا أكثر من مجرد حيازة المثل العليا واصطناعها — شيئا لا بد من توافره ليضفى على الحياة أهمية ومعنى ومغزى يستحق اعجاب وتقدير المشاهد .

قد يكون فيها المتعة الباطنية — فلنسلم بذلك — بما فيها من مثل . ولكن هذه مسألة عاطفية خاصة بها .

فلكى تَبَلِّصَ منا — نحن الخارجون عنها بما عندنا من مثل عليا تشغلنا — جزية الاعتراف بها ، فلا بد من أن تساند مثلها العليا المنظورة بتلك الدعامات الموجودة عند العمال ، وقوامها مادة الفضيلة والمروءة والشهامة . وان تضاعف سطحها العاطفى وتدعمه بالقدر الوافى من الارادة النشطة الايجابية اذا قدر لها أن تكون عميقة راسية الجذور ذات تركيب مكعب مجسم متين بالقياس الى الخلق .

ان معنى وأهمية ومغزى أى حياة انسانية — بالقياس الى تفاعلاتها ومدى الاعتراف بها وتقديرها — هو وليد زواج بين أب وأم مختلفين لا يتم الانجاب بأحد الطرفين دون الآخر ، فكل طرف منهما عقيم بذاته وحده .

فالمثل العليا فى حد ذاتها — معزولة من القرين — لا تعضى حقيقة ولا ثمر ولا تخصب .

والفضائل في حد ذاتها لا تمد الحياة بعنصر الجودة. فليقل الشريون  
والمتشائمون ما شاء لهم من القول !

أما أشد الأمور عمقا — أو على أية حال — أعمقها نسيبا في الحياة ،  
فهو الصفة التقدمية فيها ، ذلك الاتحاد العجيب المؤلف من الحقيقة أو الواقع  
والجدة المثالية التي تتتابع وتتوالى من لحظة لأخرى — حتى الحاضر .

وتعرف الجودة المثالية هو وظيفة وعمل ما نسيه بالذكاء . وليس كل  
ذكاء بقادر على تبيان عنصر المثالية في كل جدة ؛ ذلك أن الشيء المثالي  
يظل عند الكثير دائما متشبها بفكرة الخير المألوفة عندهم . في هذه الحالة  
يمكن اعتبار الخلق ذا معنى ومغزى وقيمة من ناحية تأثيره في المواطن ،  
على الرغم من كونه ليس ذا مغزى أو قيمة أو معنى بصفة كلية .

وعلى هذا اذا كان علينا أن نختار بين أكثر عنصرى الشخصية الانسانية  
ضرورة وحتمية هل هى فضيلة الكفاح والمقاتلة أم فضيلة السعة الفكرية ،  
فينبغى أن ننحاز الى صف تولستوى ونختار ذلك الاخلاص البسيط لنوره  
أو ظلامه الذى يستطيع أن يديه أى رجل عادى من غير رجال الفكر والعلم .  
بيد أننى — على الرغم من كل هذا. الدق الموصول والضرب على كل  
وتر وتغيير مجرى السفينة من جانبي — أخشى أن تعتبروا أننى وصلت  
الى نتيجة مربكة ، الى متاهة كلها تخليط .

إذ يبدو لى أننى لم أفعل أكثر من التقاط الأشياء ورفعها ثم اسقاطها  
ثانية !

فأولا التقطت شاتوكوا ثم أسقطتها ، وبعد ذلك التقطت تولستوى  
وبضولة عمل وجهد وشقاء الرجل العادى ثم أسقطتها ، وأخيرا أمسكت  
بالمثل العليا ، ويبدو أننى الآن أكاد أسقطها أيضا .

ولكن أرجوكم أن تلاحظوا فى أى معنى أسقطتها . اننى لم أسقطها الا عندما تدعى أنها وحدها وبفردتها صاحبة حق استرجاع قيمة ومعنى ومغزى وأهمية الوجود .

ان الثقافة والذوق الرفيع وحدهما ليسا كافيين ليحدثا ذلك .  
والمثل العليا وحدها لا تكفى اذا لم تقترن بالارادة والشجاعة والقطوف .

ولكن — لا الشجاعة والارادة ولا التحمل العنيد ولا عدم المبالاة بالخطر — تكفى فى حد ذاتها — ينبغى توافر نوع من الدمج والذوبان — نوع من الاتحاد والتفاعل الكيموى بين تلك المبادئ لكى تنتج عن ذلك حياة لها أهمية ومعنى وقيمة مكتملة الموضوعية والشمول .

وطبعا هذه نتيجة يشوبها الغموض وخاتمة يكتنفها الالتباس .

يبد أنه لا يمكن الوصول الى نتائج دقيقة مضبوطة فى مسألة تتعلق بالقيمة والمعنى كهذه .

ان مسألة التقدير والعاطفة دائما مسألة اعتبارية نتيجة موازنة بين الفهم والبصيرة والنية الطيبة ، ولكنها تعطى اجابة على كل حان ونتيجة حقيقية فعلية .

وطوال طريقنا ونحن نحاول الوصول اليها فتحت أعيننا على أمور هامة كثيرة .

ولعل بعضكم قد أصبح أكثر وعيا مما كان عليه منذ ساعة بأعماق القيمة والمعنى والأهمية المنتشرة فى حياة غيره من الأغرراب الذين يعيشون من حوله .

وعندما تتساءل عن مدى العطف الذى ينبغى لك أن تسبغه — على الرغم من أن كميته فى الواقع منوطة بالمثل الأعلى الذى تدين به — الا أنك

بالقياس الى فكرة قرن المثل العليا بالفضائل الايجابية النشطة ، تجد نفسك مزودا بقاعدة تشكل بها قرارك وتقرر بمقتضاها موقفك .

وفي كل حالة فان خيالك يتسع وتمتد آفاقه ، وتصبح أكثر تواضعا موطأ الأكناف تألف وتؤلف زاخرا بالاحترام والتسامح حيال الغير ، فواحا بعبير الحب والود للآخرين ، ثم تكسب متعة باطنية خاصة من القيمة المتزايدة والأهمية المتسعة التي تضيفها تلك المعاني على حياتنا العادية المشتركة .

مثل هذه الغبطة هي نوع من الايحاء الدينى ، وعنصر من عناصر الصحة الروحية ، ورصيد مذخور أكثر قيمة من تلك الكميات الهائلة من المعلومات الفنية الدقيقة التي نفترض نحن الأساتذة أننا قادرون على نقلها .

ولكى أبين ماهية ذلك الشيء الذى أعنيه بتلك الكلمات ، فسأضرب مثلا عمليا واحدا موجزا ، ثم أختم كلامى .

إننا نعانى اليوم فى أمريكا ما يسمى قضية العمل ، وعندما تخوضون غمار الحياة الخارجية ستجدون أنفسكم جميعا فى قبضة تلك المشكلة المحيرة . اننى أستعمل ذلك التعبير الموجز « قضية العمل » لأعطى به كل أنواع التذمر الفوضوية والمشروعات الاشتراكية والمقاومات الرجعية التى تثيرها .

وما دام هذا الصراع صراعا مختلا معتلا يذكى لهيب الأسنى ويشير الأسف ، ويقدر ما يكون كذلك — وأعتقد أنه كذلك لدرجة محدودة — فان اختلاله أو اعتلاله راجع الى حقيقة واحدة قوامها أن نصف مواطنينا ما زالوا مصابين بمعنى كلى لا يرون بسببه القيمة الباطنية الداخلية لحياة النصف الآخر .

ولذلك لا يشعرون بالمباهج والآلام — ويمجزون عن الاحساس بالفضيلة الأخلاقية ، ولا يخمنون وجود المثل العليا الفكرية ..

ان أغراضهم متضاربة على طول الخط بالقياس فيما بينهم ، كما لو كانوا ينظرون الى مجموعة من الذرات المتحركة الخطيرة أو — وهذا أدهى من ذلك وأمر — اذا حاولوا معرفة البواعث الباطنية فانهم يقترفون فحش الأخطاء .

وغالبا ما تكون فكرة الرجل الفقير عن الغنى أنه مصاب بجشع جبان هادف لا يثار العافية والسلامة والترف والتخث والادعاء والتفاق الذى لا حد له .

أما ماهية هذا الرجل الغنى — وكيئوته — فقوامها أنه ليس كائنا انسانا ، وانما دفتر صادر ووارد وحساب فى بنك .

وصفة الجشع — التى تتحول بسبب خيبة الأمل الى حقد — هى كل ما يراه كثير من الأغنياء فى تفكير الفقراء المتذمرين .

واذا ما بدأ الغنى يبدى عطفه نحو الفقير ، فما أكثر الحماقات التى يرتكبها — فهو يشفق عليه بسبب تلك الواجبات بالذات وتلك الحصانات — التى اذا أخذت على صحتها — كانت الشرط اللازم لأعظم متع الفقير الثابتة التى يتميز بها .

فكل فريق — بالاختصار — يتجاهل حقيقة أن السعادة والشقاء والأهمية والمعنى هى سر حيوى . وكل فريق يربطها بصفة تتميز بالسخرى وتدعو الى السخرية — تتعلق بالوضع الخارجى ، وبذلك يظل كل فريق خفيا عن أعين الفريق الآخر .

بيد أن المجتمع — مع ذلك كله — يتعين عليه أن يمضى قدما نحو توازن جديد أحسن ولا بد لتوزيع الثروة من أن يتغير ببطء ما في ذلك شك. فلقد حدثت هذه التغيرات دائما وستظل تحدث حتى نهاية الزمان ولكن إذا بدا لأى منكم — بعد كل الذى قلته — أن يتوقع أحداثا فروع جوهرية أصيلة على نطاق واسع في حياة ذرياتكم وسلالاتكم ، فمعنى ذلك أنه لم يفهم معنى محاضرتى برمتها .

ان المعنى الاجتماعى للحياة هو دائما نفس المعنى الخالد الأبدى السرمدى — أى الزواج بين مثل أعلى جديد مستحدث غير معتاد — مهما كان خاصا — من الأمانة والشجاعة والتحمل وبين آلام الرجل أو المرأة . وأيا كانت الحياة وأتى كانت فستكون هناك فرصة دائما لحدوث هذا التزاوج .

ولقد عبر فتر جيمس ستيفن Fitz James Stephen منذ سنوات عديدة عن هذا المعنى بكلمات أبلغ وأفصح من أى كلمات أستطيع أن أقولها : « ان سكك حديد الجريت ايسترن The Great Eastern أو بعض خلفائها — ستتحدى درجة المحيط الأطلنطى وستعبر البحار دون أن تسمح لركابها بأن يشعروا أنهم غادروا الأرض الثابتة — ان الرحلة من المهد الى اللحد قد يصبح من الممكن أداؤها بنفس السهولة .

« إن التقدم والعلم قد يمكنان الملايين الذين لا يحصيهم عد من أن يعيشوا ويموتوا دون هم أو غم أو ألم أو قلق . وسيمضون رحلتهم سخاء رخاء في سرور وجبور وتحديث شهى طلى ، ولن يصدقوا أن الناس في الماضى اعتقدوا وآمنوا بشن الحروب وحرق المدن واغراق السفن ورفعوا أكف الضراعة والذل ، وانهم عندما يصلون الى نهاية الشوط يمضون الى غايتهم في طريقتهم ، ومن هناك لا يعرفهم الطريق بعد ذلك ..

« بيد أنه ليس من المرجح أنه سيكون عندهم معرفة بالمحيط الذى يركبون منه — بمواصفه وأحداثه وتياراته وأطواقه الثلجية وأمواجه الهائلة ورياحه الجبارة — على غرار أولئك الذين كاضعوا مما ضد جيروته سنوات طويلة فى السفن الصغيرة التى كان لها الفضل — فى وضع من سيروها فى مواجهة الزمن والخلود ، وأجبرتهم على أن تكون لديهم وجهة نظر محددة عن علاقاتهم بها ( كخالق ومخلوق ) وعن علاقاتهم بأنفسهم »

فى هذا المعنى المجسم المثلث الأبعاد — ( فلنسمه كذلك ) فإن أولئك الفلاسفة الذين يحاجون بأن العالم شىء ثابت واقف لا يتقدم ، وأن ليس له تاريخ فعلى — على حق فيما يقولون — ذلك أن الظروف والأحوال المتغيرة للتاريخ لا تمس الا الطح والقشرة وحسب فى هذه المرحلة الإنسانية .

والتوازات المتغيرة المتداولة ، واعادة توزيع مراكز الثقل فى الحياة ، انما تنوع فرصنا وتفتح أمامنا الأبواب على مصارعها لاصطناع مثل عليا جديدة .

ولكن مع كل مثل أعلى جديد يأتى الى الحياة أو يبعث أو يولد فإن الفرصة فى حياة ترتكز على مثل أعلى قديم ستزول وتختفى ، ولا يحتاج المرء الى أكثر من أن يكون حاسبا متجبرا يتجنى على الحقيقة اذا ما قال فى ثقة واعتداد ان حاصل جمع المعانى والقيم الهامة فى أى عصر هو — على سبيل الجزم وعلى الاطلاق — أكبر منه فى أى عصر آخر من عصور الدنيا ومراحل العالم .

إنى أعلم أننى أتكلم — بصفة عامة — واننى أفقت اعتبار بعض

القيود والمؤهلات التي أومن بها أنا نفسى . ولكن الانسان لا يستطيع أن يثير أكثر من نقطة واحدة فى محاضرة واحدة . على أننى سأكون قائما وراضيا اذا كنت قد نجحت فى تجلية هذه النقطة لكم هذه الليلة ، ولو الى حد قليل .

يبد أن هناك تعويضات فى الحياة .. ولا يمكن لأى تغيرات خارجية فى ظروف الحياة وأحوالها أن تمنع بلبل معناها الخالد — من أن يفنى فى كل أنواع القلوب المختلفة للناس .

هذه هى الحقيقة الأساسية الجديرة بالتنويه والتذكر .

فاذا استطعنا أن نقرأها ونؤكددها — ليس بشفاها فحسب — ولكن نؤمن بها حقا وصدقا ، وندين بها فى قلوبنا وسلوكنا ، فكم من دواعى إصرارنا والحاحنا المشنج ، وكم من دواعى نفورنا وكراهيتنا ومخاوفنا بعضنا من بعض — ستلين وتزول .

إذا استطاع الأغنياء والفقراء أن ينظروا الى بعضهم البعض — بهذه الطريقة — فستقل حدة توتراتهم وستتسم منازعاتهم بطابع الرقة واللين والهدوء ، وستزخر الدنيا بالتسامح وبروح الدعابة ، وستنتلىء نفوس الناس جميعا بالرغبة الصادقة فى أن يعيشوا ويدعوا الغير يعيش .